قفطان زكري

daralmoltaqa@gmail.com @DarMoltaqaAlmarefa www.daralmoltqa.com

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

ردمك:
رقم الإيداع القانوني:

حقوق الطبع محفوظة لدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع وأي اقتباس أو إعادةطبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

المراجعة اللغوية والإخراج الفني وتصميم الغلاف: فريق العمل بدار ملتقى المعرفة للنشر والتوزيع

القاهرة / مصر
جوال: 00201278821670
00201003528058

محمود عطية مفتاح

رواية

قفطان زكري

daralmoltaqa@gmail.com @DarMoltaqaAlmarefa www.daralmoltqa.com

إهداء

إلى أصدقاء الكلمة الطيبة ولكل شخص نجح
في تخطي مشاعر الضغينة والحقد المدمر ....

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ليس من العقل في شيء أن تصل الضغينة بهذا السوء حتى يتحد الإنسان مع الشيطان لأجل إيذاء أخيه وسرقة سعادته ومحاولة قهره وجعله يتحسس الألم والحرمان.

انه فقدان لذرة الإحساس بالمعاني والإنسانية والتموضع لأجل القبول بهذا المرض الخطير وتتبع سلوك معين حتى يبقى الإنسان تحت رحمة الشيطان وجعل الأخرين تحت رحمته هو أيضًا.

لم تأتِ رواية (قفطان زكري) من العدم لتعبر عن سلوكيات في عالم الخيال، بل هي ترجمة للبعض من الواقع المعاش الممتد إلى يومنا هذا باختلاف الزمان والمكان، وحتى سلوكيات السحرة وإن كانت مختلفة الأفعال ولكن ذات النتيجة واحدة.

لم يكن الإنسان محمي من العين حتى من أقرب الناس إليه فشدة الإعجاب تأتي بالعين الضارة وذكر الله ترجم الشر وتبعدها عن المحب، في أي وقت تكون لحظة الإعجاب هي أيضا تكون لحظة ذكر الله غير مقترنة بقيد من الزمان، التسبيح بذكر الله غير محجوز أو محجوب بستار بين الخالق وعباده الصالحين.

دخول المُشبح زكري بين الأزواج بحجة العلاج بالرقية الشرعية جعلت منه شيخ كبير القامة في القرية وهو من كان يبحث عنه منذ زمن بعيد، طالما وجد أناس تؤمن بالسحر كعلاج.

وتمتنع عن ذكر الله في خلوتها عن أدق التفاصيل لدواعي الحشمة والخوف ولكنها لا تخجل من البوح بالأسرار الدقيقة لساحر ادعى الوقار والإيمان.

الأهطل

بدأت رحلة التكوين لشخصية الطفل المغولي شعبان ببلدة (طويرة) أو قمر الصحراء التي تبعد عن بحيرة قبر عون بليبيا بمسافة ١٥ كيلومتر وتعتبر من أهم معالم ومنتجعاتها السياحية بليبيا وهي أحد محافظة أوباري المدينة التي تقع جنوب العاصمة طرابلس، فيها مشاريع زراعية لإنتاج الحبوب باستخدام نظام الري الدائري حيث يمتاز طقسها الصحراوي لاشتماله على بحيرات المالحة ومنها بحيرة قبر عون المحاطة بتلال رملية عالية وبحيرة أم الماء وبحيرة أم الحصان والطرونة ومندرة، بعض هذه البحيرات جفت منها المياه والبعض الأخر لازال يحتفظ بالماء، ولا أحد يعلم أصل تسمية أوباري، هناك من قال بسبب آبار المياه .. وهناك من قال بسبب المرض الذي جاء لأهل القرية في قديم الزمن وهناك من نادى بحضارة الجرمنت التي مازالت آثارها إلى اليوم من مقابر وأهرامات قديمة جدا مثل أهرامات الحطية والخرائق وقصر لأركو وغيرها..

لهذا أطلقت تسمية المغولي على أي شخص يصاب بمرض العتاه أو السفاه حيث أن أصحاب هذا المرض لا يعيشون فترة طويلة من الزمن وهم مقيدون بوقت معين، أيضًا قليلو الكلام بسبب تأخر

نضوج الفكر والفهم لديهم ولكي يبقوا أذكياء ويتصرفون بطبيعة نضيفه نقية مقارنة مع غيرهم من البشر.

سبب إطلاق تسمية المغولي على المصابين بهذا المرض داخل المجتمع الليبي هو عدم معرفة المرض إلا مؤخرا وأيضا لصعوبة التنبه بما سوف يفعله المصاب من تصرفات وأفعال غالبا ما تكون فجائية.

يغلب عليها طابع العنف من ضرب وتكسير كل الأشياء من حوله عند أول ثورة غضب، لهذا أطلق على أفعاله التي أقرب إلى الدمار الذي أحل ببعض بلدان العرب نتيجة لأفعال المغول بها وهي كناية مصغرة مرتبطة بالعقل الباطني لمآسي قد خلت.

***

الباب الأول

ولد شعبان من أب معتوه وأم سليطة اللسان قبيحة الإحسان ((ساحرة الرجال)) منذ اليوم الأول لزواج الأب والأم بدأت المشاكل، فقد كان الزواج في تلك الأيام عبارة عن حظ لا يعلمه أحد من الزوجين فكلاهما لا يعلم شئيًا عن الأخر إلا في لحظة الحقيقة وهو اليوم الفارق في حياتهما يوم الزفاف .... عندما يلتقي الزوجان على فراش الزوجية ...

في أكثر الأحيان بسبب العادات والأعراف وأيضًا الحالة المادية والاجتماعية القريبة من بعضها البعض يحدث الاندماج والآنسجام السريع بين الأزواج..

إلا في حالة صخر وبرنية فقد حدث الصدام بينهما منذ ليلة الأولى، لكن حب التزاوج جعل من المعتوه يكمل ليلته وهو على فراش الحب يبحث عن المتعة ...عن إشباع الغريزة الحيوانية فيه قبل إشباع الروح بالمعاني والأحاسيس.

فقد كان مثل المجنون الذي يبحث عن الانعتاق من اسر كان فيه مثل الوصايا التي تتلقفها الأجيال جيلا بعد جيل، لم يكن الزواج

فقط لأجل المتعة وإنما هو الخلاص له بإعلان الرجولة والتفرد بصنع القرار.

سكنت برنية له راغبةٍ في السيطرة عليه من خلال منحه ما يريد هو لا ما تريده هي الآن والمقايضة فيما بعد، أن المعاشرة الزوجية ليس حق مكتسب في عرف برنية!!؟

***

في صباح اليوم التالي ... أنتِ لستِ بفتاة عذراء يا برنية!!

– نعم .... أنا كنت متزوجة من ابن عمي..

يتمتم صخر ..... نعم ... نعم الفتاة يتزوجها أي شخص بعد طلاقها فقد كانت النساء بالعدد القليل في المجتمع ولا يمكن للآباء والأمهات أخبار العريس أن كانت البنت ثيب أو بكر ... إلا بناءً على طلبه.. فليس له حق الاختيار أو الامتناع والاعتراض مثل حالة الزوجة وان كانت أكثر ضعفا في مثل هكذا امر

عليه القبول فقط دون أي حق أو اعتراض لأن كل شيء مرتبط باختيار الآباء وقبولهم، هذا هو حلف الأحلاف وارتباط الحلف بالسلف هو المقدس عند الأهل ولا يمكن للإنسان المجنون قبل العاقل ألا يفرح لليلة العمر وإفسادها لأي سبب كان..

في المقابل لم تعطى برنية حق القبول أو الاعتراض للارتباط بشخص معتوه اسمه صخر.. جاء من بعيد يحمل أكياس المال والهدايا لأجل الزواج..

يطلب برنية الجميلة السمينة ((قياس جمال المرأة في ذاك الزمان)) الساحرة ... وأيضا يشترط أن تكون عذراء له، هذا المعتوه لا يعرف حق الاعتراض على الأحلاف والسبر المقدس فقد عرف عن النكران في الامتناع وطمع في جمالي مع العذرية .... تتمتم برنية وتنظر بقصر العين باتجاه صخر!!

– قول لي .... يا برنية ... لماذا اشترط والدك زريبة كاملة من الأغنام وذهب وعرس كبير وكامل الأثاث ومنزل ... وأنت ليست عذراء؟؟

– لأنني ... شريفة وجميلة وسمينة وهذا يكفي!!

– وأنا أيضا .... أعز الرجال؟

– أنت معتوه ..... أتعبنا والدك بالطلب الملح علينا ... وأرهقت والدك كثيرا حتى أراد التخلص منك ومن مصائبك ... فكان الحل في تزويجك.

– هل وصلت بك الوقاحة ..... سوف أضربك بالعصا ...!!

***

ذهبت برنية إلى منزل أبيها وهي عروس بعد أن تلقت الضربات بعضها تلوي بعض حتى عرفت معنى الضرب المبرح ... واشتكى جسمها قبل أن تنطق بأمر لأبيها، فقد كان القوام يشتكي تمزيق المجنون له بعد أن أشبع نفسه منها ارتواء للذة ولم يبقى للذة من معنى إلا إشباع الجسد بالضرب حتى يعلن انه السيد المنعتق من الأسر والمنتشِ بإشباع نفسه بكل حقوقه من المرأة..

اشترط الأب بعد إلحاح صخر بإرجاعها إليه خلال أيام ... أن يجلب هدية كبيرة وأن يعتذر لأمها ولها أيضا..

رجعت برنية إلى عش الزوجية، كان صخر كثير النوم ولا يشبع من حالات الكسل ويهمل العمل أحيانا كثيرة ولا يذهب إليه حتى ينقطع الراتب عنه.

أصبح مصروف المنزل كبير، تنزعج برنية وتصرخ لهذه الحالة ... أين الطعام؟ أين عمل الرجل لأجل أسرته؟ أين الحقوق!!

الصراخ يجلب الصداع لصخر، يخرج المارد النفسي من قمقم ويبدأ في تأديب برنية حسب قوله وفهمه لأمور الحياة..

تسرع برنية إلى منزل ذويها مرة أخرى ... في حرج أكبر مما سبق فقد أصبحت الحياة بدون مأكل أو مشرب مع الضرب..

يأتي صخر بعد أيام مستعذر عما بدر منه ولكن هذه المرة يخرج والد برنية السلاح من تحت الخب ويهدده بان أمراضه سوف تنتهي بطلقة واحدة من مسدسه إذا ضرب ابنته مرة أخرى..

***

ترجع برنية إلى عش الزوجية مع صخر ولكن حالة صخر تغيرت وأصبح الأمر مختلفا عن ذي قبل، يتحرك بشي من الذعر اتجاه زوجته، يختار كلماته بعناية ويتصرف بحذر مع برنية ...

أصبح يتجاهل أي طلب غير مقدور عليه لبرنية ودون إزعاجها ... يتعذر لها ويفعل ما يراه مناسبا..

تستغرب برنية ذلك وتشعر أن صخر أصبح أكثر دهاء ومكرا معها، عندها تقرر أن تلجا إلى طريقة أخرى للحصول على مبتغاها وهي إشباع غريزته الجنسية مقابل جلب الطلبات، فقد أعلن صخر فيما سبق عن خطأه بان عبادة الجنس من وصايا الرجال عند مبدأ الفحولة في عرف الأدعياء، فكم من رجل سقط من على صهوة جواد عندما أعطى الحق للصعود بين الفخذين وترك العقل تحت الأرجل ..

حتى جاء اليوم الذي أوجع فيه مرض الفخذين صخر فكان من برنية أن تعايره بابن عمها الزوج الأول .... انه الفحل القوي .... أنت معتوه ضعيف!!

جن جنون صخر وعبر عن غضبه بالتنفس فيها ضربا من كل الاتجاهات حتى أغمي عليها..

بعد برهة من الوقت استيقظت وذهبت مسرعة إلى منزل ذويها تبحث عن الأمن ... شاكية الأمرين ...

حب الشهوة والمتعة على السرير ليلاً والضرب والكلام البذي نهاراً، لا يمكن للزوجة تحمل كل هذا في رجل عشق الجنون قبل عشقه للحب، ويرى في المرأة أنها جنس يمشي على الأرض، له الحق فيها كالمشاع، يبرك عليها ليلاً ويضربها نهاراً تم يعودها على ذلك وينزع

منها حق المعاشرة بحجة المرض فيما بعد .... تصرخ برنية نفسها..

استمر غياب صخر أيام تم قرر الذهاب لأجل إرجاع برنية، فالمنزل موحش بدون برنية الجميلة، يشعر صخر بالغضب من نفسه لأجل التسرع بضرب برنية وإزعاجها..

طالبا الاعتذار فكان السلاح جاهزا له ... مشيرا إلى صدره، طالب الاستفهام عن سبب ضربها لها ...

رد صخر بسرعة ... أنها تعايرني بابن عمها؟؟

– نعم .... ابن عمها هو ابن أخي.. الرجل القوي الشهم.. ذو الأخلاق العالية!!

يتمتم صخر قائلاً.....

– إذن لماذا طلقها ... ولماذا أتزوجها أنا؟؟

– هذه الطلقة في الهواء ... والطلقة الثانية في صدرك إذا تكرر سؤالك ... الآن ارجع بزوجتك ولا تفكر في إزعاجها مرة أخرى وعليك جلب الهدايا عندما تأتي إلينا زائرًا؟ ...

في الطريق ينظر صخر إلى برنية وفي قلبه الكثير من الكلام ... ولكن طيشان والد برنية والسلاح المهدد به يجعله يفكر كثيراً قبل اتخاذ أي خطوة ...

يفكر بصوت خفي ... الأمر أكبر من موضوع زواج وانتهى.. الأمر أنني محلل لها فقط ... تريد أن تحصل على الطلاق مني حتى ترجع إلى ابن عمها .... الأمر في شيء لا أعرفه!!

***

أصبح صخر أكثر خوفا وذعرا من ذي قبل حتى أصبح يرى الأطياف في النهار والكوابيس تأتيه ليلاُ.

بدأت برنية تتدمر من ذلك حتى تتطور الأمر بصخر إلى الخروج ليلا من المنزل وترك برنية تقضي ليلتها في خوف وحدها ...

استمر الأمر إلى تكسير حاجيات المنزل، قام أيضا بإتلاف بعض المتعلقات الخاصة ببرنية التي تعلقها في المنزل القديم المبني من الطين الفاخر..

من يملك منزلاً طيناً اعد من المختارين المرضي عندهم فقد تحصل على حب الناس فخراً بانه يملك القصر بينهم! نعم انه المجد يبدا من منزل طيني تعشقه كل النساء وترتمي على قلعته العذارى وتنام على السدة[1] كل جميلة أردها المحب أن تكون زوجته قبل أن تكون عشيقته ..

المنزل الذي لا يتملكه في ذاك الوقت إلا من لديه المال والأراضي أو وارث عن أبيه الكثير ... اغلب الناس تسكن في العشش والخيم القديمة والقليل من يملك منزل مصنوع من الطين المبني.

***

(١) دار نوم قديمة تصنع من الخشب وتكون في جزء من الغرفة وتمتد إلى منتصفها

أصبحت الأمور أكثر تعقيدا بعد أيام من الفوضى التي أحدثها جنون صخر، يقضي معظم أوقاته في التخريب، يصعد فوق المنزل لحفر السقف ويجعل به فتحات وتصدعات حتى يتساقط الماء منه، يخلع الباب الرئيسي للمنزل ويرميه ... تم يذهب ويترك المنزل مفتوح، أفعال كثيرة يعملها صخر ولكن دون علمه كما يزعم!

أصبح عدائيا أكثر عندما أعلنت برنية أنها حامل بطفلها الأول .... فكان الرد من صخر بعدم خروجها من المنزل وذهابها إلى المستشفى لتلقي العلاج المناسب.

القفل عليها بالمفتاح هو الأنجح في رأي صخر، لأنه ببساطة يشك بهذا الحمل السريع إذا كان من ابن عمها (زوجها الأول) ...

ولكن ما من منزل طيني مهما علاء شانه أن يصنع له باب يفتح أو يغلق أمام جمال برنية فاتحة جميع الأبواب المغلقة، ليس من الصعب أن تخرج برنية من منزلها وهو دائم الفتح والخلع ...

اغتنمت برنية هذه الفرصة وذهبت مسرعة إلى منزل أبيها خوفا على نفسها وعلى ما في بطنها من بطش المعتوه الذي أصبح لا يطاق فقد زاد جنونه عما كان عليه وهو أعزب؟

فرح صخر بعدم وجود أحد بالمنزل واخذ بتخريب كل شيء يقع تحت عيناه، فهو المتنفس الوحيد أمامه بعد أن كانت برنية هي العلاج!

يسعى جاهدا للانتقام من برنية التي تفضل الرجال عنه وتندب حظها أمامه ولا تتوقف عن المجاهرة بذلك..

***

يسال صخر نفسه لماذا أنا أتزوج امرأة ليست بعذراء وتعايرني صبح مساء، أسماني أبي بصخر حتى أواجه الجميع بقوة دون خوف..

إذا كنت ضعيفا لكان جدي قد أوزع لابي بتغير اسمي إلى اسم أحد العبيد! مثل بركة أو الفرج أو رحمة كما كان عمي يفعل !!...

كثير من أبناء الأقارب لهم أسماء للحروب وأسماء للعبيد فمن أراد من ابنه الذهاب بعيدا عنه إلى الحرب يختار له اسما يليق بالصراعات والحروب والغزوات...

أما الصنف الأخر الذي يريد الحفاظ على ابنه فيختار له أحد الأسماء القريبة من البركة والتبرك والعطايا..

يتمتم صخر....

ولكن ..... أنا والدي اختار لي الاثنان، اسما للحرب وهو أقرب للخديعة والتباهي، فلا يوجد من يفرط في ابنه الوحيد والسند القاضي..

كان يخاف عليا كثيرا ويعطي القدر الكبير لأجدي في عدم إظهار مشاعر الخوف والمحبة أمامه وهذا ما جعله يوافق على طلب والدتي بعمل شعائر الحضرة والأبخرة وضرب الدفوف.

مع اكل الثعابين والتبرك بها مع الصُلحين حتى أصبحت أقرب إلى الولي الصالح في نظرهم واختفى اسم صخر من دفاتر العقول وإن كان الاسم مازال موجودا على الورق ...

***

اطلب فأطاع والكل يتنازل أمامي بمد اليد واخذ الرضى ونيل الاستعطاف.....

هم يعرفون الأولياء أكثر مني وينادون على أسماءهم في كثير من المحافل، لكن أنا عندما أبقى بمفردي اعمل أشياء هي أقرب إلى الفساد والنكران .... هكذا تقول برنية ودائما تصرخ بأنني مفسد ومهلك لا ي شيء لمسته يداي ..... معتوه .... معتوه!!

مستحيل أن تكون كل البشر على خطأ وبرنية هي الأصح ....

حب الرجال للشهوات ... نقطة ضعف تستغلها بعض النساء، أنا مرهون لعبادة شهوتي مع برنية فقد أخذت عقلي وجسدي المتقطع بجمالها المغموس بنظرات الرجال إليها إليها حلت.

نظرت الرجال إليها هي من تقتلني وتقتل كل نفس تخرج منها، لابد أن اشفي غليلي من جسدها حتى يترهل وترحل عنه الأعين ويبقى خاليا لوحدي فقط..

هذه المرأة أدركت عبادة الشهوات وتكرهني لهذا السبب، تعلم أنني لست من الأولياء كما يدعي الأدعياء.. أنها الفتنة قبل أن تصبح فتون عند الكثير!

أصبحت فوق ...أنال ما يريد وهي في الأسفل تذعن لما أريد، في السماء عاليا اكتب أفعالي بالذهب ...

***

ذهب صخر إلى منزل أهل برنية طالبا إليها الرجوع معه إلى بيت الزوجية، مع قليل من الهدايا والكلمات .....ترضخ برنية..... وتزعل أم برنية..

يسرع صخر باقتراح عمل حضرة في منزله حتى يذهب الزعل وتنقضي المشاكل، موفق من يؤمن بطرد الأرواح عن طريق عمل الأولياء المقترنة بتصاعد الأبخرة وترديد بعض الكلمات الغامضة..

يقف الخلاف والدمار والخراب بالمنزل .... تردد والدة برنية.

أعجبت برنية بالفكرة المقترحة وقررت العودة إلى منزل صخر والاستعداد لهذا العرس الجديد ...

تحضير الوليمة مع الأقارب والأصدقاء لأجل سهرة جميلة وممتعة هي من يبحث عنه البعض، بعيدا عن صخب الحضرة والألعاب التي تحصل عبر أدعيائها فيما بعد..

استحضار الأرواح والرقص بحركات بهلوانية غريبة مع وضع رموز وشعارات لا يعرفها إلا من دخل ضمن الدائرة المغلقة لأي فصيل يدعي انه الأحق بتمثيل أل البيت..

لا يقف الأمر إلى ما بعد العلاج والكمال وهناك من وصل إلى الادعاء بإحياء الموتى.

في كل شوط من أشواط الصراخ والغناء يمزق الدفء ويرتفع الصراخ بترديد التمائم عبر كلمات جزء منها معروف والباقي يبقى مجهولا.

وما على أهل البيت إلا الانصياع والطاعة وخدمة المكرمين منهم فهم الأتقياء في اعيين المصفقين..

يبرق الشيخ بنظراته اتجاه الأطفال والنساء حتى يشعر الجميع بالخوف، تسعد برنية بهذا التعبد ..... انه المخلص من الأفكار الشريرة والحامي من عين الحسد والحقد.

تسعى جاهدة للبحث عن الأبخرة العفنة فكلما كانت الأبخرة عفنة زاد الإيمان والتقوى عندهم حسب الاعتقاد!!

توقد جميع أنواع الأبخرة حتى تغطي بها المنزل، تبحث هنا وهناك.. حتى تقع عيناه على المشعوذة ((أم القبي)) تنظر إلى برنية وقد تمكن منها الشيطان ووسوس لها بالخداع وجعلها تعوم في بحر من الخيال فهي المختارة من بين المئات الآن، أصبحت تجري ما تدري حسب المثل الشعبي الذي ترددده أم القبي عندما تتمكن من شخص ويصبح أمره تحت يدها.

يصبح مثل الخاتم في الأصبع .... يا برنية ... يا برنية يا سيدة المنزل الأولى ...

نعم ... نعم يا أم القبي ... يا مباركة ...

انظري إلى ما فعلته الحضرة هذا اليوم ... أنها تشفي القلوب والأبدان ... من خلال هذه الحضرة التي كشفت لك المستور؟!! يا أسياد تستووووور ..... تستور ...تستور يا مثور!!

ماذا هناك؟؟

هذا المنزل به سحر كبير جدا .... جدا.. سحر مدفون في عتبة الحمام ولكن لا تسالي عن شيء الآن ... فقد علينا التركيز مع الصُلاح والأسياد وغدا صباحا سوف أقوم بإخبارك بعد أن أتحصل على الإجابة من الأسياد؟!!

****

انفض الجمع عن برنية بعد أن اكل الجميع وسهر من سهر وانخدع من خدع بالسحر، تسبح في كثير من الخيال الذي يرجعها إلى الأهل تارة ثم الأصدقاء والأقارب والأعداء.. من الذي قام لي بالسحر .... وبقيت برنية حائرة في أمرها نظر إليها صخر وأردف قائلاً...

هل الحضرة أخرجت الأرواح الشريرة من المنزل وأصبح المنزل الآن في حماية الأسياد؟!

هل قلبك مرتاح كما هو قلبي الآن يا ساحرة العيون!!

نعم يا صخر ولكن الموضوع أكبر من استحضار حضرة واخذ رضى الأسياد فقط ... الموضوع متعلق بسحر قد عمل لنا عن طريق مشعوذ كبير!!

هذا ما قالته لي الشيخة أم القبي ....

- ولكن أم القبي ناقلة للإخبار والأحاديث بين الناس ... ما علاقتها بالسحر؟

السحر وأعمال الشيطان لست نقل أفعال وأخبار .... أنها شيخة قادرة وعلينا الاستماع إليها ...

نعم .... أنا أحضرت الحضرة والذبائح لأجل أن يخرج السحر منا ...

ولكن الظاهر انه خرج أمام الشيخة ((أم القبي)) ...هذه .....

***

في صباح اليوم التالي رجعت أم القبي إلى برنية حتى تأمرها بجلب بعض الملابس الخاصة لها ولصخر أيضا.

علاج السحر يبدأ من تبخير الملابس وعمل الازم لها ... هكذا تردد أم القبي، تسلم برنية أمورها إلى أم القبي وتفتح لها كامل الأسرار، أصبح المفتاح الآن بيد الساحرة الماكرة.

تردد أم القبي السر في نفسها:

((الآن تجري ما تدري .... الآن تجري ما تدري)).

أي لا تعلم بشي مما سوف يحدث لها.

هذا الخير الكثير من فضة وأراضي ونخيل وزرع وزيتون في زمن الذي أصبح فيه كيلو التمر يبدل بجزء من الأرض لأجل سد وجع الجوع، لابد أن يجعل من أم القبي أن تتحين الفرصة وتستغلها بكل قوة فقد لا تأتي مرة أخرى....

كان لابد لكل شخص من تدبر أمره إلى حد السحر والخادع والكذب والغش في كثير من الأوقات.

***

التمليك بين الناس كان بالمغارسة فالأرض شاسعة والبشر قليل جعلت منهم يتقاسمون الأراضي الزراعية فيما بينهم عن طريق ((المغارسة)) فمن يغرس الأرض بالكامل لها نصفها ملكاً له.

هكذا ورث صخر عن جده وأبيه هذه الأرض التي غرسها بالكامل وأصبحت تحت تصرفه ويحق له البيع والشراء فيها.

جاءت أم القبي ببعض الأدوات وحفرت حفرة صغيرة أمام الحمام الداخلي حتى أخرجت بعض العظام الصغيرة.

هنا طلبت من برنية سرعة قراءة القرآن على عتبة الحمام ... وداخل الحمام!!؟؟

وعند أول قراءة خارج الحمام قامت أم القبي تصرخ وتتوجع من بطنها فقد غلب السحر الساحرة فاللعب مع الشياطين يجلب الخطايا والمنكر دون معرفة الأخطار من ذلك وخاصة اتباع الطريقة البسيطة دون معرفة حقيقة الأمر ... توقفت برنية عن القراءة وتسمرت في مكانها، أصبح وجهها يتغير من لون إلى لون أخر خلال لحظات .... أصبحت لا تعلم شئيا ...

نظرت إليها أم القبي نظرة غريبة جدا ... طلبت منها إحضار العقد الكبير مع الخلخال وأيضا البدلة[1] الكبيرة .

فلا يملك هذه الأشياء الثمينة إلا الأسياد أصحاب المعالي ... هكذا تردد أم القبي .... هذا هو طلب الأسياد حتى يتم فك السحر عنكِ وعن صخر.

(١) البدلة الكبيرة هي بدلة الفرح لكل عروس تزف بها وتصنع من الحرير والفضة.

لم تنظر برنية خلفها وذهبت مسرعة وأحضرت كل شيء حتى شعرت أم القبي بان سرعة الإنجاز في خداع برنية هو صك عمل جديد لها بالقرية.

يصلح أن يحرر الساحرة من العمل أكثر داخل القرية.

أخذت أم القبي كل شيء وأعطت لها بعض الأبخرة وهي عبارة عن عظام مطحونة مع دماء جافة وبراز كلاب جاف مخلوطين بمياه العادمة.

رجع صخر إلى المنزل حتى يجد المنزل مقلوب رأسا على عقب وبرنية على غير حالتها الطبيعية... سأل السؤال ... فكان الجواب أننا قد تخلصنا من السحر؟

سعد صخر بهذا الخبر... وأشعل الأبخرة حتى هرب من المنزل لشدة الرائحة الكريهة التي لا تطاق.

ولكن الأبخرة قوية الرائحة هي من تطرد الأرواح الشريرة وأعمالها ... هكذا يردد صخر وتردد معه برنية؟

نعم هكذا أمي تقول إن كل ما كان البخور شديد الرائحة فهو الأقوى لإخراج السحر

***

ذهبت أيام واكتملت الأبخرة وأم القبي لم تظهر من جديد فقد توارت عن الأنظار، أصبح صخر كثير النوم والصراخ في نومه حتى بدا الجيران في سماعه.

برنية كثيرة الغضب، الكوابيس تنال من الجميع، تخرج على شكل ضلال مع غروب الشمس فتصبح الأشكال مخيفة مع انكسار ضوء القمر الممتلئ في قلب السماء ويزداد الأمر رعباً مع صراخ صخر كلما تغير ظله من مكانا إلى مكان، الذي يهرب من رؤيته في النهار يأتي إليه في المنام أكثر إزعاجا مما نراه في الحقيقة ((الطبيعة الحية)).

الخوف هو قرين الإنسان الجبان الذي يرمي بضعفه على الأخرين في صورة سحر أو عمل أو مرض أو حقد وحسد.

***

لم يتمالك صخر نفسه وقرر الذهاب إلى شيخ طريقة آخر، بدأ يبحث ويسال هنا وهناك فقد بلغ الأمر ما بلغ، والطب قاصر على مثل هذه الحالات في القرية.

عاش الآباء والأجداد على الطب الشعبي في كثير من الأحيان ... الإيمان به أكبر مما وصل إليه العلم الآن.

تتطور الأمر مع صخر جعله يطرق جميع الأبواب التي يمكن أن تخلصه من السحر واللبس (القرين).

هناك من يعالج بقراءة القران الكريم والرقية الشرعية المعتمدة باختلاف الطرق والقراءات.

وهناك من اخذ طريق القران ولكن سلك أفعال الشيطان بان ادخل كلاما غير مهموم مع القراءة واشترط الختام .....حضرة كبيرة فيها استحضار للخلايا النائمة ... واسترضاء لهم.

***

وجد شيخا يدعي انه الأفضل في العلاج من السحر بعد مضي عدة أيام من التمحيص في السؤال عنه.

انه الشيخ زكري ... شعاره (انزع قميصك من بعيد قبل الجلوس والكلام معه) يشرب الماء بعد أن يبصق في الماعون.. ويطلب منك الشراب من بعده!!

يردد صخر في نفسه لا؟

الم تكن هذه الأفعال هي من صنع اليهود في قديم الزمان أم أننا لا نعرف سلوك الأخرين بمعزل عن خلفيتهم!! إلا من خلال القصص، كانوا قليلو العدد وقد رحلوا في برهة من الزمن وبقيت البلاد تتغنى وتفعل المفاعيل إلى حد اللحظة.

ردد الشيخ زكري على صخر الكلمات المبهمة تم طلب منه شرح حالته، استمع الشيخ زكري لصخر وقرر بسرعة علاجه، ليس هناك شيخ يبخل بالعلاج عن مريضه وكل الأمراض لها علاج خاص مع زكري ... الأمراض تخجل أمام زكري فهو مكشوف عنه الحجاب كما قالت أم القبي فيما سبق.

تكرر الأمر مع صخر، الذي أصبح يعاني من كل شيء في جسمه.

***

اخرج الشيخ زكري قنينة ماء من عبئه وإعطائها لصخر، طلب منه شربها دفعة واحدة ودون تردد وأيضا عليه التبول على مساكن النمل فقط ... دون غيرها والبحث عن كل مسكن منها والتبول عليه مباشرة وحولها لمدة أسبوع كامل.

وبعد أسبوع من اليوم تأتي إلي مباشرة وتخبرني عما حدث معك بالتفصيل .....

***

رجع صخر إلى برنية وأخبرها بكل شيء، طلبت منه تنفيذ الأوامر بسرعة دون تردد .... فكلام الشيوخ لا يقبل الفصال والجدال وهو كحد السيف يأخذ به على الفور.

قام بذلك ولكن بعد ثلاثة أيام أصبح منزل صخر يعج بالحشرات ...كثير من الحشرات..

ذهب مسرعا إلى الشيخ زكري يخبره..... من بعيد أخلع ملابسك وان تأتي إلي عاريا؟!!

أصبح صخر عاريا .... الآن أصبحت خالي الذنوب وأقرب إلينا من ذي قبل!! يا صخر...

يصرخ صخر أنها الميعة الآن ولم يعد صخر الذي كان ... هذا الاسم أصبح بلا مضمون..

الشيخ ....

– ألا تعرف لماذا طلبت منك أن تخلع ملابسك؟ حتى اعرف انه لا توجد حشرات مختبئة فيك!! ... وتصبح بلا محيط أو مخيط فانت أقرب إلى الحجاج إلينا ...

– نعم ... نعم ... أنا اعلم بكل شيء واعرف أن السحر الذي أصابني كبير جدا وأعطى الأوامر للحشرات باقتحام منزلك.

نعم ... منزلك عرضة للهجمات الآن، علينا وضع خطة مناسبة لنيل رضا العفريتة؟!

– وهل هي عفريتة؟ أم عفريت!! ...

لا يهم الآن .... علينا الذهاب بسرعة إلى منزلك وعلاج ما

يمكن علاجه.

مع وصوله إلى منزل صخر ... قرر الشيخ زكري حسب المؤمنين به وبخزعبلاته إلى اختلاق علاج..

يميل بنظراته يمينا وشمالاً باتجاه النخل والغرس الباسقات بتمعن ينظر إليهم وكأنه رأى الجنة المحكي عنها..

رد مسرعا يا صخر .... يا صخر أن هذه المزرعة في خطر ... خطر كبير جدا؟؟؟

كيف لك ألا تقول إنك تملك مزرعة بها كل هذه الأشجار؟

وأيضا منزلك في نفس المزرعة وبه الحشرات، يبقى الأكيد أنها تراهن على الغذاء والقضاء على المحصول الذي بمزرعتكم..

لك الخيار في وضع حل وعلاج لهذا كله يا صخر؟

– لم يملك صخر من نفسه شئيا أمام كلمات زكري .... ردد لك ما تريد يا سيدي الشيخ؟!

هذا العلاج سوف يكلف نصف ما تملك يا صخر من المزرعة والمنزل أيضا؟

النص .... النص؟!!

النصف أفضل مما لا شيء ... النصف الآن هو خير من ضياع كامل المزرعة وسقوط المنزل الطيني عليك، الأكيد انه سوف يسقط في أي لحظة!!

ونحن نعلم أن بعض النزل في القرية هي مصنوعة من الطين المرصوص، هذه المنازل تعتبر الأفضل في ذاك الوقت وهي تعبر

عن حالة الفقر والغنى باختلاف أوضاع السكان..

يقاطعه الشيخ زكري قائلاً.....

وهي أيضا تعتبر المكان المفضل لبعض الحشرات للأكل وصناعة بيوت بها ....

مع استسلام الكلي للصخر فقد أصبح عاري من كل شيء بعد أن تعرى من ملابسه فيما سبق..

علم زكري انه أمام كنز يغرف منه كل ثمين ونفيس..

لا تخف... لا تخف يا صخر أنا لا أملك للنفسي شئيا .... بل أريد أن أساعدك وأخرجك من هذا الألم والمرض؟ خاصة أنك متزوج حديثا وتسعى لتكوين أسرة، لابد من علاجك بأسرع وقت وشراء نصف الأملاك منك بالثمن المناسب؟

– شراء؟

نعم ... سوف اشري منك المنزل مناصفةً ب ((برسيل تمر)) كما هو المعتاد في البيع والشراء عند أهل القرية آنذاك...

– ولكن هذا الثمن هو شراء عمي الأول للأراضي المجاورة ... هذا الثمن لا ينفع أن يكون هو سعر الأرض والمنزل اليوم؟؟

نعم يا صخر ولكن أسعار الشيوخ مختلفة ... فهم لهم الفضل والتقدير الخاص.

هم الأدري والأنفع لك اليوم..

غذا سوف أتي إليك بالعلاج المناسب الذي يخلصك نهائيا

من كل أوجاعك ...

وأنت تأتي بالحجج ويتم الأمر بالكتابة والتنازل بيعا وشراءً...

***

نام صخر على فراش الحيرة، نظر إلى سقف منزله الذي سوف يقع حسب تنبؤات الشيخ زكري، ردد أن الشيخ يريد سرقته ولا يملك العلاج، صوت الحشرات وصراخ برنية المنزعجة منها..

تجعل صخر يوافق على طلبات زكري، بعد أن ألحت برنية بضرورة إيجاد حل لهذه المشاكل.

عليك بإطاعة الشيخ في كل شيء يقوله حتى نتحصل على البركة التي تحمينا من كل الأشرار والحاسدين لنا.

العين والسحر موجودة كما في سند الصحابة والتابعين وأخبر عنهما الرسول الكريم..

– نظر إليها صخر بتمعن ... من تقصد بالحاسدين لنا ... هل تقصد أبناء عمومتي الذين لهم نصيب بهذه الأرض، ولهم نصيب أيضا بالمنزل.

هل موضوع الحشرات هو سحر من فعل أبناء العمومة؟

لا اعتقد ذلك ولكن لأنني لا أريد تقسيم الميراث وإعطاء الحقوق فحصل الذي حصل.

لا يمكن لي أن أعطي الميراث دون معاقبتهم، ليس لهم حق في الإرث مقابل ادعاهم بأنني ليس لي الحق في التزاوج من احدى بنات أعمامي....

يرفضون ابن عمهم ويزوجون بناتهم للغريب، انه الحرمان أيضا كما احرم أنا سوف يحرمون هم أيضا، لقد أرادوا القطيعة وأوصوا بي الحرمان، يتغانون بان الميراث هو حلقة الوصل بين الأقارب ونسوا أن التصاهر والزواج هو الحلقة الحقيقية لانتقال الميراث ...

سوف أعطي الأرض للغريب أيضا وبأرخص الأثمان؟! .....

***

في اقصى الشمال يبدا حلم الشيخ زكري بالأرض وما عليها، أنها في أزهى أيامها خضرةً وعطاءً... تكسوها النعم من كل جانب .... أنها السعد وانا الأسعد بها ...

لن تكون هذه الأرض إلا ملكا لمن يستحقها !!

قلما تجد أرضا بهذا الجمال وبهذه الحلة، يغرق في بحر الحلم وهو يردد بجمالها.

قبل شروق الشمس ذهب مسرعا إلى منزل صخر، أيقظ طراق الباب القوي صخر من نومه مسرعا.

تفاجأ بحضور زكري في هذا الوقت المبكر؟؟ يسال صخر مستغربا .....

– لا تفزع من شيء فقد كنت مارا من هنا وقلت للنفسي انظر في امر الحشرات؟ وهل الأمر في تزايد أم تناقص حتى اعد العلاج المناسب وكذلك أخبرك عن موعدنا بعد الظهر اليوم؟!

ذهب زكري في حال سبيله وترك صخر حائرا.. يصرخ بصوتا عاليا حتى تسمعه برنية.. يريد نصف الأرض ونصف المنزل؟ انه يرث الأرض وما عليها بدون وجه حق ...

يريدها مقابل الشفاء من الأمراض وإخراج الحشرات من منزلنا ...

تبتسم برنية في وجه صخر.. انه عرض مناسب جدا ... نعم عليك التوقيع فهي ليست لك وحدك وعلى أبناء العمومة التفاهم مع زكري فيما بعد؟

ذهب صخر إلى موعد التنازل وفي قلبه شيء من الغمة ... يقدم رجل ويأخرها ولكن ضعفه بسبب عدم وجود السند والخوف من البقاء وحيدا إذا تخلت عنه برنية ... انطلقت به الطريق إلى حيث موعد التنازل.

جاء زكري مفتخرا بي برسيل التمر في يده وأيضا قنينه ماء بها بعض الأعشاب الغريبة ...

عليك أن ترش هذه الأوراق كل صباح وبعد نصف ساعة قوم بغسل المنزل بماء البئر والصابون لمدة أسبوع من الآن ....

انتهت مراسم التوقيع والتنازل الكامل، وبعد أسبوع أيضا انتهت الحشرات وأصبحت الأحلام المزعجة في تناقص ولكنها لم تنتهي.

بقت مشكلة التبول اللاإرادي التي أصبحت ملازمة لصخر وخاصة بعد أن تبول في أكثر من مكان وباختلاف الأحجام لبيوت النمل حتى أصبح يعاني الأمرين تبول اللاإرادي والدبول الجنسي.

أصبح لا يعاشر برنية ويتهرب منها كثيرا، والخلاف بدا يكبر عندما أعلنت له صراحة أنها ترى فيه نصف رجل غير قادر على أموره الحياتية ومنها الزوجية ...

***

لم يقف الشيخ زكري (ذو البشرة الحنطية) من القدوم إلى المزرعة التي تحصل عليها بأقصر الطرق فقد تحصل على الكنز الذي لا يمكن أن يتركه.

ينظر أبناء عم صخر إلى زكري وفي اعتقادهم انه مجرد عامل أجير، يعمل لدى صخر بأمور البستنة والفلاحة والاهتمام بالأرض ليس إلا.

يلقون عليه السلام ذهابا وإيابا كلما سنحت الفرصة دون أن يترك ذلك مجالا لشك.

مع ازدهار أمر المزرعة أكثر فأكثر ... يصرخ أبناء العمومة ... أه لو كان الوالد هو الأكبر لكانت حجج الأرض بحوزتنا الآن وليست مع هذا المعتوه الذي يحتفظ بكل شيء ولا يريد منا معرفة أي شيء عن حقوقنا، هذا انتقام..

لابد أن يكون التخطيط من زوجته الجديدة فهي حسناء ولكنها ماكرة تريد أن تبعده أكثر عنا وخاصة انه قد امتلاء قلبه علينا ويردد الغضب في كلماته عندما يرنا، نسى أن الزواج قسمة ونصيب ...

أه ...يجلب العمال حتى تصبح مزرعته أفضل من الأراضي الأخرى؟!!

***

يصعد الشيخ زكري النخلة القريبة من منزل صخر دون علمه بوجود أحدا في المنزل، فقد انتهى من جني الثمار على الأرض وأصبح يبحث عنها في اعلى الأشجار، كان اليوم مخصص للنخيل المثقل بالثمار الطازجة..

لا يعلم زكري أن المنزل به أحدا وكان يعتقد انه خالي من السكن، عند وصوله إلى الأعلى رأى برنية بوسط المنزل المفتوح من المنتصف مثل الإناء المصنوع من الطين ووسطه فارغ ...

رأى فيها المفاتن والإغراء ... يصرخ من فوق النخلة.. بصراخ البدير[1] ... تصعد الأبخرة... ويعرق الجسم ويتعفن الإبط من الرائحة الكريهة فقد خرج الزبد من فمه وقد رأى الحسناء اكثر جمالا من ذي قبل وهو المجنون بجمالها دون علمها ..

رجع مسرعا إلى خلوة الحضرة واجمع المجتمعون على استحضار الأخيار بإشعال أكبر العطايا عبر توزيع الأدوار بين أعضاء الفرقة الواحدة.

سعرت النار لأجل يوم كبير تحضيرا للحضرة الضاربة، بدأت الأفواج في الظهور من كل مكان لأجل الاستماع لكلام المستور الشيخ زكري.

ارتفعت الأغاني إلى السماء صراحة مع صرخ زكري بأعلى صوت يا سيد البراني احضر لي برنية في الخفاء .... يلوح صخر براسه يمينا وشمالا دون معرفة المقصد..

(١) هو الدف الذي يضرب به عند المناسبات كنوع من أنواع العزف والموسيقى.

فقد كان يهيم بنفسه دون أن يعرف الصديق من العدو، يلجا إلى كل مكر ويقربه منه على انه صديق، يرقص في حفل هو أقرب إلى انتزاع زوجته منه..

الجموع لا تنظر ولا تدقق في الكلمات فهي هائمة في الموسيقى الرقص الغريب ومع تصاعد دخان الأبخرة وضرب البنادير العالية، تنهض برنية من مكانها ... شيء يطلب منها الخروج والجلوس في حضن الشيخ؟؟ يشدها بقوة إلى أن تجري وسط الحشود عارية تطلب الغفران والرحمة من شيخ الشيوخ ... والعلاج هو السقوط في حجر زكري ....

ولكن عندما تذكر الله ترجع إلى حالتها الطبيعة، وتقف عند حد الباب وتقفل على نفسها ...

هكذا حتى انتهت ليلة الصراخ ببروز شمس الصباح ليوم التالي ...

****

رجع أبناء العمومة إلى منازلهم وكلا منهم يبحث عن الإجابة فقد بقي السؤال معلقا مع تعلق الشيخ زكري ببرنية.

ينظر كلا منهم في قرارة نفسه ماذا يفعل هذا العبد الزناديق الذي ادعى انه شيخ في الأرض، يقوم بعلاج الناس في أملاكنا؟

ولماذا سمح له صخر بإقامة قداس الحضرة بكامل فرقته في وسط المزرعة؟

أين هو صخر ... لماذا لم يكن موجودا يستمع للحضرة كما هي العادة ... بقي قليلا وذهب مسرعا؟

ما وراء هذا الشخص من خطب؟ لا يمكن أن نعرف الحقيقة إلا من خلال السوءة التي في عيناه ... إذ لا يوجد عبد عيناه حمرا مثل لون الدم إلا وكانت وراءه مصيبة ...فقد أعلن النار من خلال مد اللسان وفتح عيناه بقوة ... أنها الدماء تخرج من عيناه تقذف الشرار وتبحث عن شيء مفقود.. نحن لا نعلمه ... والوحيد هو صخر يمكن أن يشفي قلوبنا بخبر يطفئ هذه النيران ...

***

لا يعلم صخر بنفسه حتى وجدها تفر إلى عشة زكري في نهاية المزرعة تشتكي الوجع وتطلب من زكري الحل السريع.

لا يوجد ما هو اهم من العلاج، الوضع المزمن عند صخر ... هكذا يلح ويطلب صخر على الشيخ.

فقد أحس بعدم الرجولة وأصبح يخجل من برنية التي ترى فيه النقصان .....

– طلب منه الشيخ زكري شرح ذلك بالتفصيل..

لم يبلغ عند صخر أن زكري يراوده عن زوجته ويطمع فيها بعد أن اخذ منه الأرض فيما سبق ...ودون تردد بدا يسرد في الخصوصيات ويعاني الابتعاد عن زوجته وأيضا هي تعاني العطش ...

انطلق الشيخ زكري مبتعدا بأفكاره يسبح في بحر كبير من السيئات، يرى في ذلك انه العلاج لها والخلاص من ظلم الابتعاد عن صخر..

يصرخ الشيخ زكري انه يشعر بهذا الفقدان فقد مر به من قبل ...

– رد صخر مستغربا؟ الست متزوجا يا شيخ!

– نعم ... أنا متزوج من امرأة مختلفة الألوان.. جسدها وقلبها مغاير عن أسنانها ... قلبي بدأ يعشق اللون الواحد يا صخر؟!!

***

طمع الزنديق في الأبيض بعد أن سائم من الأسود وكبرت به الغرور، أتته نفسه الذهاب بعيدا بأفكاره دون خجل أو خوف من أحد فقد أصبح يملك ويسمع بعد أن كان نكره في أعين الناس.

يجلس على جدع نخلة ويبتسم في وجه الطير على امل أن يرد عليه بالابتسامة ذاتها فقد ينخدع المرء بابتسامة إنسان ولكن لا يمكن أن يرى في وجه الطير النكران، دون جدوى يصرخ الطير مبتعدا عنه فقد عرف السحر مبكرا قبل أن تعرفه البشرية..

اشترى كل شيء يريده وازداد حال التملك عنده وبدا ينظر إلى ممتلكات الجيران دون ورع ...

طلب من صخر أجرة المنزل.. فقد أصبح نصف المنزل ملكه ويريد حق النصف في الإيجار إذا أراد الإقامة به.

صدم صخر بهذا الطلب ونظر إلى زكري طويلا حتى تراجع في طلبه ... لا تقلق سوف اجعل أجرة المنزل هدية حتى تتعافى من مرضك..

تعال... تعال معي إلى الكوخ فقد انتقلت إليه مؤقتا .... خذ هذه الأوراق واطحنها جيدا تم اشربها مع الماء قبل النوم وعليك أن تبدأ في الحلم قبل النوم بانك تعاشر زوجتك!!

وفي الصباح أخبرني بما شعرت به ...

***

لم يكن زكري يمارس خزعبلاته إلا من اجل تمهيد الطريق أمامه لتحقيق رغباته الشيطانية، يمارس التضليل والكذب بعد أن سيطر على نصف عقل برنية والإرادة الكاملة لصخر.

ينتهي الإنسان عندما يسلم كامل إرادته إلى الغير، هذا الغير يمكن أن يكون بشرا أو شيطانا فيجعله هو الحاكم لكامل التصرفات السيئة دون الاعتراف أو الجهر بها..

هذه الأفعال تكون في الخفاء كدلالة على أنها غير مشروعة وضد القيم والأخلاق وطبيعة الإنسان..

هناك من يسلم نفسه برغبته إلى الشيطان ويسعى إلى تحويل الأخرين إلى مجرد دمى في يده، والحقيقة أن الجميع بما فيهم هو مجرد أرقام وأدوات تسعى إلى إسعاد الشيطان وجعله في حالة نجاح نسبي، يتوهم من ذلك انه وصل اليقين ولكن عند باب جنهم يسرع الشيطان في تبرئة نفسه ويهلك الكل وهم لبعضهم متآمرين.

هي أفعال ليست بالبسيطة، تخلق صراعات دائمة وتدخل في أدق التفاصيل الأسرية حتى يصعب العلاج البسيط لها وخاصة إذا تأخرت الأمور وأصبحت كامل المفاتيح بيد القرين.

لا يوجد حلول أمام تكبر أولياء الشيطان وسعيهم لنيل العطايا إلا التقرب من الله في حالة الصحة والرخاء أو مع اشتداد المرض والضيق.

وهذا الذي ابتعد عنه الزوجان وجعلهم أقرب إلى زكري ...

***

في اليوم التالي .....

تناول صخر الدواء الموصوف له من زكري على انه العلاج الأكيد، نامت بجواره برنية..

بدا يحلم بالياء كثيرا.... رجع الصراخ واشتداد المرض لصخر ... تعالت الأصوات بهذه الأحلام..

ينهض كل صباح وهو في سعادة كاملة يتبجح بان الرجولة لديه ولكن لبرنية لها راي أخر ... فهي تشعر بانزعاج كبير.. والأمر أصبح يكبر بشكل يؤثر بالسلب عليها..

تطلب منه علاج الوضع ولكن صخر قد تحصل على الأمل المفقود فكيف يتعالج منه الآن بعد أن تحصل عليه بعد مشقة كبيرة ... انه الشفاء الذي يجلب الصلابة وتنكسر أمامه برنية ...

أبدا ليس من الممكن التفريط ... بهذه الأحلام.. يصرخ صخر..

– ينظر صخر إلى برنية بنظرة إعجاب .... ويهمس بصوت رقيق ... هل شعرت بشيء ليلة البارحة؟

– مثل ماذا ...؟

– اقترب منها .... وهمس بالحب عن الحب!!

– أنت أين؟ وأحلامك أين؟ يا رأيت اشعر أنك رجلاً ولو لمرة واحدة!!

– ينفجر غاضبا يضرب بيده الحائط... ما هذا؟ هل أنا أعيش الحياة مرتين، في عالم أخر أم أن برنية تكذب فقد شعرت إنني أمارس

كامل حقوقي معها على الفراش وتضحك معي ولكنها في الصباح تنفجر غضبا..

في بعض الأوقات اشعر بالضيق بعد كل ممارسة للجنس مع شخص لا تحبه ... هكذا تردد برنية.. ولكنها تعايرني في نفس الوقت بعدم معاشرتها!!

انتظرني هذه الليلة ... انتظري فقط

***

ذهب مسرعا إلى الشيخ زكري طالبا منه الحل بعد أن وضعه أمام أشياء بعيدة عن ارض الواقع ...

أنها الأحلام .... مجرد أحلام غير حقيقة يا زكري ...كنت دائما ابحث عن جسد برنية واراها في أحلامي حتى تحققت أحلامي بالزواج بها ... ولكن عقلي وروحي تزوجت من برنية وبقي جسدي خارج المنزل لا يناور ولا يفعل أي شيء أمام عنفوانها ....

هل تبقى الأفعال هي مجرد أحلام عندما يصل الإنسان إلى حبه، أليس من حقي التعبير عن حبي لها بان تشعر بوجودي يا شيخ؟ أم أن طلب برنية أن ترى رجلا ينزل منزلة الحيوان في القبض على محبوبته ويعاشرها هي مجرد طلب لا حقيقة له ولا يصح أن تطلبه ...

نعم الرجل من حقه أن يطلب زوجته ولكن ليس من حق الزوجة طلب ذلك ..... افعل شئيا يا شيخ، برنية سوف تذهب بعيدا ...

يهمس زكري لصخر ...

الحلم إذا لم يعاكس الحقيقة فهو كابوس دائم ... أنها حقيقة برنية لا تريدك !!... تريد أن تنتقم منك ليس إلا؟ ...

أنت قوي ... قوي وليس بك أي عيب يا صخر ... خذ هذه الأوراق وإذا لم تكن هذه الليلة ... هي السعادة لك ... فان الدواء الأخير سوف يكون النهائي ...ولكن علينا أن ننتظر النتائج أولا... هذه الليلة .... اذهب إليها.

***

رجع إلى المنزل وبيده الأوراق قابضا عليها بقوة الغضب ... ليس أمامه خيار إلا تنفيذ تجارب الشيخ زكري فيه..

جاء الليل وجاءت معه الشطحات.. حتى سمعها البعيد ... صراخه يسمع بوضوح وقد وصل إلى زكري في كوخه .... يضحك وتعلوا السعادة .... زكري هو السعيد ... ليلة السعادة كانت لأجل الشيخ ولم يكن لصخر إلا المرض والألم والضياع ...

برنية ... شعرت بالرعب الشديد ... خرجت مسرعة إلى كوخ زكري تطلب منه المساعدة ...

لم يكن علاج زكري إلا لأجل انتظار قدوم برنية له مسرعة ... فقد اخذ القرار مسبقا ... أن تأتي له بالملابس ... جميع الملابس التي بالمنزل ... حتى ملابسها.. فعشق زكري بدا من الملابس وارتفع إلى داخل الملابس يبحث عن منايا قبل أن تكتب الخطايا، سلب كل شيء يبدا من الزوجة التي هي المفتاح ...

– وهل سيقف الصراخ وتنتهي أمراض صخر إلى الأبد ..... عندها ينظر إليها زكري ويهز براسه ... فلا سبيل أمام برنية إلا الموافقة .... أسرعت في جلب ما يطلبه زكري.

***

جاء الصباح ومعه الفرح للعرسان الجدد ؟!....

كانت برنية وصخر في حالة من المتعة الغريبة! فقد شعر صخر انه أفرغ جميع غضبه في برنية التي كانت بعيدة عنه في الواقع، روحيا وجسديا فكم من مسافات تبقى ابعد بين الأزواج وان كان الجسم ملاصقا للأخر زيفا ليس إلا هروبا أو خوفا..

أيضا ... شعرت برنية أن صخر قد مارس جميع أنواع الحب ... وحصلت ما تبحث عنه ..... نظر كلا منهما إلى الأخر ....

يسبق صخر برنية بالكلام ..... الم اقل إنك سوف تشعرين بشيء أخر هذه الليلة .....

تضحك برنية ... أود أن اعرف !!..... من أين لك بهذه القوة .... أنت كنت مختلفا ولست كما العادة ....

أنت مثل النار المشتعلة .....أنت لست أنت ... كائن أخر؟!

لم تكن حرارة جسمك طبيعة، اشعر بقوة رهيبة في يدك عندما تمسك بي لم اعتد عليها من قبل، لقد جمعت قوتك كلها في ليلة واحدة حتى شعرت أنك كائنا أخر غير الذي اعرفه ولكن الشكل هو أنت والعيون لست لك فقد انطلقت من مكانها ورجعت بسرعة عندما سمحت لها بتغطية مفاتني ...

بقت برنية في المنزل تتخبط في حيرة من أمرها.. تهمس وتسال ... دون أجوبة ...

الفرحة ... الفرحة هي التي غطت على كل شيء ... هذا التطور هو ما تبحث عنه برنية دون أي شيء أخر ...

لأيهم ما الذي فعله صخر للحصول على هذه القوة التي سوف تكون ملكها في كل ليلة ...

ولكن هذه القوة يجب ألا تشكل خطرا على الجنيين ... تفكر وتبحث برنية بين زوايا المنزل ...

***

مر صخر على الشيخ زكري ... يخبره بالعجب ... انتهى كل شيء أمام صلابة صخر ... يتمايل بخطواته يمينا وشمالا مثل الديك، مزهوا برجوع الصحة إليه ... فلا مال ولا مزرعة ولأشيء يعادل ما يشعر به صخر الآن.

الصحة هي المثقال لميزان الرجل أمام زوجته، أي اختلال في الصحة سوف يجعل من برنية الغزال الشارد الذي يقفز من حضن ايل إلى ايل أخر....

والمصيبة أن والد برنية ينظر إلى أنا فقط ومسدسه دائما مصوب نحوي ...

هذا السلاح الذي تحصل عليه من جندي بريطاني أيام الامتداد، قد غيره من إنسان إلى أنسانا أخر وأصبح يرى في نفسه هو القاضي قبل أن يكون هو الخصم ...

يرهب الأصدقاء والأهل قبل الأعداء .... الذين لا يهمس لهم ببثه شف.

حق السؤال عن سبب طلاق برنية من ابن عمها لا املكه وأيضا لا يحق لي في الحصول على الإجابة..

انهم أعداء للضمير فقد رسموا نجاح حياتهم وسر ابتسامتهم على تعبي واسمي وأصروا على احتقاري.. وإذا عرفوا بسر إخفاقي في الفراش ستكون النهاية القاسمة لكل رجل أصيب بالعار..

سيقف الكل مع برنية الجميلة التعيسة المسكينة التي لم تجد رجلا يعرف قيمتها ... هكذا يردد الحاقدون ....

عليا إلا اسمح بحدوث ذلك مهما كلف الأمر ... أنا صخر وسوف أبقي كذلك ...

***

لم تقف الأفكار والصور أمام مخيلة صخر حتى تصادم مع ابن عمه سالم في الطريق ... وجه لوجه ...

– ماذا بك يا صخر في الليل هيام وحضرة ... وعالم أخر ... وفي الصباح أيضا تتخبط مع الأخرين ؟!

منذ متى وأنت في هذه الحالة ؟

– حالة .... ماذا تقصد بحالة ؟

الحالة التي أنت فيها الآن؟ مشتت الأفكار، لا تعلم بنفسك إلى أين أنت ذاهب؟ أو من أين أنت قادم ... وكأن هموم الدنيا فوق رأسك ؟

– أنها الحياة يا بن عمي .... مشاغل الحياة فقط..

– نعم ... من كرم الحياة الباذخة وكثرة المال جعلتك تقوم بالولائم وإحضار أولياء الحضرة في كل ليلة !

وخصوصا البارحة ... كانت سهرة غريبة ... اشتعل الصراخ إلى امتداد النهار.. حضرت جميع الأقوام من خيرها وشرها..

– حضرة !!..... هل ليلة البارحة كانت هناك حضرة في منزلي ؟

– هي في مزرعتنا ... في نهاية المزرعة بالضبط..

– مزرعتكم؟

– لا اقصد المزرعة التي تقيم فيها الآن والتي لم يتم تقسيمها بين الورثة ...

– أه ... تقصد مزرعة الشيخ زكري ؟

– ماذا يفعل الشيخ زكري في هذه الأرض ؟

– عليك سؤاله، فهو معروف انه يعالج الأرواح ... وأين ما حل يسكن حتى يطرد الأرواح منها تم ينتقل من مكان إلى أخر؟

***

الواجهة الأخرى .....

بدأت برنية بتنظيف المنزل وإخراج الأوراق القديمة من صندوق صخر حتى وجدت بين أوراقه أدوية غريبة الشكل ووصفات مكتوب عليها بالعربي وأيضا بالأجنبي..

لم تستطيع أن تملك نفسها ... هذا هو الدواء ... لماذا يصرخ صخر كل ليلة.. إلا إذا كان قد امتنع عن أخذه.

يصرخ صخر كل ليلة بسبب المرض المذكور في هذه الوصفات..

الشيخ زكري له عين ثاقبة وسوف يحل هذه المسالة أيضا؟

كانت تسعى إلى الشيخ زكري من بعيد ... ولكن زكري في شوق وسرعة في نفسه أكثر منها..

ينظر إليها وهي آتيه إليه ... يدعو أن ينتهي هذا البعد بسرعة وتبقى برنية دائما إلى جانبه ...

عند وصولها إليه.. أخبرته بهذه الأدوية والأوراق ... عرف أن صخر قد ادخل فيما سبق إلى مستشفى الأمراض العقلية وخرج منها بسرعة دون معرفة الأسباب أو انتهاء العلاج أم لا .....

لا يمكن للشيوخ تبرير هذه الأمراض أو الأخذ بها ... كما أن الطب لا يعترف بعلاج الأرواح وأفعال الشيوخ..

انه السر الذي سارت عليه الأحلاف وقد وثقه زكري فيما بعد مع الشيوخ الأخرين فلا مكان للطب الحديث بيننا، انه العار من يدعي انه مريض نفسي ويريد العلاج منه عند الفرنجة!!

زكري منذ أن كان طفلا لا يؤمن بالأطباء واخذ الأدوية الموصوفة ويرى أن الطب الشعبي المتمثل في الروحانيات هو الحل..

ينظر إلى برنية ويطلب منها عدم الإكثار، بل عليها أن تعي أن صخر يعاني من مس شيطاني..

ولهذا السبب أنا قريب منه ...في هذه المزرعة ...

هذه الأرض كلها بها مس ... كما قالت لك أم القبي فيما سبق..

***

عليك برش هذه المياه مع الملح في منزلك، وابحثي عن حرباء كبيرة تكون حية وقومي بذبحها تم ضعيها تحت السرير ....

قامت بفعلتها .... حتى جاء صخر إلى المنزل بعد رحلة من التعب .... فوجد المياه في كل ركن وزاوية من المنزل ...اعتقد أن برنية أصبحت كالمعتاد تغسل وتنظف ...

لم يسال قط ..... فقد كان الخطب أكبر والتفكير بما قاله ابن العم وضياع المزرعة ونصف المنزل هو الشاغل، ولكن الأهم هو العلاج؟

ينتظر الليل بفارغ الصبر ... فخطوات زكري وتعليماته هي ... الليل.... في الليل يحدث كل شيء دون أن يسال، لماذا الليل؟؟

***

أصبحت برنية ترى زكري في المنام ولكن الجسد والصوت يختلف عن زكري ... يمسك بها بقوة ويكمل ليلته.. ومع صراخ صخر ... تصرخ هي أيضا ...

الفرح يدخل إلى قلب زكري ... فهو لا ينأم الليل حتى يسمع الصراخ؟

لم تكن هذه السعادة لأجل علاج الطبيب لمرضاه، أو انقضاء السحر ... بل لأجل إسعاد أناس آخرين يريدون ابتعاد برنية عن صخر .... تبقى ابتسامة زكري الغريبة هي عنوان للإجابة ... في كل فعل ل صخر

***

في صباح اليوم التالي .....

استقضت برنية من النوم وهي تعاني الوجع والإرهاق ... يطلب منها صخر عدم الأنينين وإعداد الفطار.

وجع برنية يزداد كلما تحركت ... أصبح الوجع ... صراخ ... يسرع صخر في طلب المساعدة من الجيران لنقلها إلى المستشفى ... فهو لا يعرف مكانه.

أخذت الفراشية[1] بنفسها وذهبت إلى الاسبيثال[2] القريب، أجريت لها التحاليل التي أظهرت خطورة كبيرة على الجنيين بسبب الالتهابات الموجودة نتيجة ممارسة الجنس اليومية وبعنف .....

تطلب منها الطبيبة التوقف عن أي مجهود أو اتصال الزوجي خلال هذه الفترة..

عادت برنية إلى المنزل ووجدت صخر، القت الوصفة الطبية أمامه وطلبت منه إحضار الدواء وضرورة التوقف عن الجماع حسب إفادة الطبيبة..

تجهم وجه صخر غاضبا .... الطبيبة لا يمكن لها أن تقول هذا .... هل تمنع ما شرعه الله بين الزوجين؟!!

أنت تختلقين هذا حتى تصلي إلى الهدف المرسوم في راسك؟ ؟؟؟ ماذا....

سوف احضر لك الدواء بسرعة؟!

---

(١) هو اللباس الرسمي لعدد من النساء أثناء خرجهن من المنزل إلى الشارع العام
(٢) المستشفى المعالج بالقرية..

هما بالخروج حتى راه زكري من بعيد ....

إن صخر يحمل ورقة ويتجه إلى الصيدلية الكبيرة ....

قال في نفسه .....

الأكيد بانه سوف يتأخر .....

حرك بسرعة سمرتاه وغطى البخور ...الملابس الخاصة ببرنية ...

لا تعلم برنية بنفسها حتى فتحت الباب أمام زكري ... تطلب منه الخلاص ... أتى إليها مسرعا من بعيد ... إشارة برنية لا يمكن تأخيرها أو التوقف عندها؟

دخل عليها وهي غائبة عن الوعي، فعل أفعاله الشيطانية بها..

لم يتوقف حتى سرقه الوقت وأتى صخر حاملا الدواء .... يتلمس خطواته حتى تفاجا بوجود أثار أقدام أمام منزله ؟

أنها أثار أقدام زكري!! يتمتم في نفسه..

فتح الباب ونادى على برنية ... مرارا وتكرارا دون جدوى ...دخل إلى غرفة النوم ... وجدها جالسة على السرير ... هناك خطب قد حصل ... ينظر الطرفان إلى بعضهما البعض ...

الم تكن هنا؟؟

صخر .... جلبت لك الدواء؟ ولكن ما هذه الرائحة الكريهة!!

فتش هنا ... وهناك ... تم نظر تحت السرير، وجد كلبا اسود؟

– ماذا يفعل هذا الكلب الأسود تحت السرير؟

– أنا ... لا أعلم شئيا؟!!

– كيف لا تعلمي؟ كيف دخل إلى المنزل أصلا ... إذا لم تقومي بفتح الباب له؟

تخرج برنية مسرعة وتجلب العصى لتضرب بها الكلب.. ولكن دون جدوى ...

يخرج صخر باحثا عن الشيخ زكري دون جدوى... فلا سبيل أمامه ألا الجيران..

يعلى الصراخ ... أتى الجيران وبعد جهد وصراخ خرج الكلب هاربا ... ولكن خطواته غريبة فهي تترنح مثل زكري ... يتمتم في نفسه صخر؟!

تصرخ برنية من شدة الألم وتطلب من صخر نقلها إلى منزل ذويها بسرعة ...

ينفض الجمع ويقفل صخر الباب ... يطلب من برنية المكوث في منزلها فهو في حل عن المشاكل مع والدها ...

طلبت منك مرارا وتكرارا عدم الجماع ولكن أنت لا تسمع وتصر على تدميري وتحلق الأذى بي وتقذف التهم بإدخال الكلاب النجسة إلى المنزل ...

تصل إلى منزل والدها ... علم بكل شيء..

وصل به الأمر إلى حالة من الغليان، لم يكن يتوقع أن تصل الأمور مع صخر إلى عدم علاج زوجته وتركها تتألم ولم يراعي الجنين في بطن أمه وأيضا اتهامها في كلب؟

***

يضع راسه على الحائط .....

أه.. ضاعت مني زوجتي العزيزة وارضي ومالي وصحتي .... صحتي.. لا... لا..

الصحة موجودة ولكن بدأت الشك بها هي أيضا؟ ... يخيفني هذا الشك

كل شيء مشكوك فيه ... طريقة الجماع مشكوكا فيها وهي دائما تبدو كالحلم وبرنية مشكوك في أمانتها.. والطفل أيضا ... أه

لا .... لا ..... هذا الجنين هو طفلي فقد حملت به قبل أن أمرض ... هو بالتأكيد طفلي..

ولكن إذا كان طفلي.. لماذا تخفي عني سرها!! برفضها الإفصاح والبوح عن سبب طلاقها من ابن عمها الذي تهمس باسمه كل ليلة ... ولا تخجل..

أنها امرأة .... سألفع .... سلفع[1] لا تعرف الحشمة ، أرسلت كل الصيغة إلى أم القبي دون اخذ الموافقة مني ...

لقد عاشت في خيري ولكنها تهمس بالرجال أخرين غرباء ....

لن أتوقف ... أنا صخر الذي يضع الحلول ... مع زكري؟!

زكري هو العارف بالأمور .... ولكن لماذا هو جالس يغتسل بالماء هناك؟ ما هذه الجروح والدماء التي على جسمك يا شيخ؟

هل تعرضت لضرب المبرح؟

– يرد بلغة غاضبة ... لا... لا ... بل سقطت من اعلى النخلة

(١) السلفع _المرأة التي لا تعرف الحياء أو الحشمة.

هناك!!

ولكن أنت ... لماذا وجهك شاحب هكذا؟

برنية .... أنها زوجتي تركت المنزل وتريد الطلاق ... والآن هي موجودة في منزل والدها الذي لا يعرف إلا لغة السلاح والتهديد في كل مرة يراني فيها.. عليك وضع حلا لهذه المشاكل يا شيخ؟

نظر الشيخ زكري إليه بتمعن ..... كيف لي أن أضع حلا إلى كل هذه المشاكل.. وأنت لم تسدد دينك بعد ... وأيضا علاج الإصابات التي أعاني منها؟

دين ومصاريف!! ماذا تقصد يا شيخ؟

– هل فقدت الذاكرة بسرعة؟

نصف المنزل ... اجن مقابل السكن ؟؟...

– لا تخف ... سوف أسدد لك ولكن عليك إرجاع برنية إلى منزلها بسرعة الآن ...

***

لم يكن في بال زكري أن يفسد فرحته بانفصال صخر عن برنية عن طريقه في ود الخصومة والطلب بعودة الزوجين إلى بعضهما..

أتى زكري على دار ال برنية، وجد والدها على الناصية يشعل النيران لأجل الإضاءة وتجهيز القدر للعشاء.

يبحث هنا وينظر هناك وأعلن السلام على الرجل .... رد السلام بالسلام

دون معرفة الأول للأخر ...

سال عن الحال ودوام الصحة ودخل في قوله انه وسيط بين صخر وزوجته لأجل إنهاء الخصام ورجوعها إلى منزلها كما نص الإسلام؟ ...

بعد أن عرف عن نفسه بانه شيخ ...

– سعد والد برنية بالشيخ وبكلامه ..... ولكن شيخ في ماذا؟

هل أنت حامل لكتاب الله أو خطيب مسجد أو معلم ..... لم اسمع بك من قبل؟

– يغير زكري وجه صوب النار .... أنا شيخ روحاني اخرج الأمراض عن طريق الحضرة .....

– تغيرت لهجة والد برنية ... وبسرعة ... اجن تسكن ...؟

– أقيم بمزرعة صخر الآن ... لأني أعالج هذه الحالة؟!

– الآن عرفت ... من اجن تأتي المشاكل ... الأهطل أرسل إلينا ساحرا!! ويريد من ابنتي الرجوع حتى تقيم في منزل اهطل وبمزرعة

ساحر؟ مثل الذي يقرب الهشيم[1] من النار...

أي عقل يقبل هذا؟

أنا أؤمن بالله وعلاج الأرواح تكون عند خالق الأرواح ولا ينفع حضرة أو صراخ في قبول الفتوى..

اخرج من منزلي ... ولأتعود إلى هنا أبدا ... يا زكري ... يا ملعون ...

وأخرج المسدس من تحت الإزار..

– وقف زكري ... وتراجع إلى الوراء وبدأ يصرخ ... يا عريان ... يا عريان اخلع قميصك من بعيد.. وانتظر رد الأولياء؟

عندها أطلق والد برنية النار في الهواء .....

..... قفز زكري هاربا ... يركض ويسقط من وراءه ....

رجع زكري يندب حظه في إرجاع برنية إلى عرينه الخفي .... ويسال نفسه.. هل كشف المستور ... والد برنية يعلم؟

يتخبط.. كيف ... كيف له إلا يخاف؟ وكيف لي أن أعيش بين أهل القرية إذا عرف السبب .....

على الأولياء أن ترد على الإهانة الكبيرة ... فقد وعدته بان الأولياء لن تسكت وسوف تفعل الأفاعي به ....

مر الوقت حتى وجد نفسه أمام صخر .... ينتظر الإجابة ... ودون سابق إنذار يرد زكري ... بان والد برنية شخص أحمق لا يريد الخير لابنته ...

***

(١) نوع من النباتات سريع الاشتعال.

دخل زكري إلى كوخه ونار الغضب تنهش جسده وتشعلها ... كيف لهذا أن يسخر مني ومن الأولياء..

لا يمكن أن تنطفي هذه النيران المشتعلة في قلبي إلا باشتعالها في أملاكهم..

أه ... يا برنية.. أنت نار تمشي على الأرض لوحدك ... وليطفئ النار إلا نار اقوى منها تأتي عليها منك يا برنية فتكون النهاية..

***

يمضي الليل في سكون، يخيم عليه السكون الهادي، يعطي الطمأنينة والسكينة، يتغنى به الأحباب ويسمر به الأصدقاء، روعة الليل في لباس النجوم واشتعال القمر ضياء..

صحي الناس على نيران مرتفعة في الزرع والنخل ... اختفت بسرعة النجوم والهدوء والسكون وتغير الأمر من جميل إلى جحيم ..... ارتفعت الأصوات وأصبح الدخان يغطي المكان ..... من .... أنها مزرعة ال برنية ؟! يردد الجمع .....

يتسابق الكل لأجل إطفاء النار وكان صخر أحدهم .....نجح العمل الجماعي في إطفاء النيران..

نظر صخر إلى الوالد العجوز .... نحن أهل .....

رد العجوز في صدمة ... لقد أخبرتني ابنتي بكل شيء ... عن الذي تملكه في هذا الصدر! ... أنت اهطل كنت في مستشفى المجانيين..

أبوك ... زوجك من ابنتي تم رحل بعيدا.. وترك كل الهم عليا .... جعل من زواجك حبل تمسكه وتلفه على عنق ابنتي ... وعلى هذا السبب قمت بجلب السحرة إلى منزلك حتى يحرقوا منزلي الآن وتنتقم؟!! أليس هذا ما تريده ....

لا .... لا...

اسأل ابنتك ... وماذا فعلت مع أم القبي؟

– عليك أن تعرف شيء واحد أن ابنتي سوف تلقى الرعاية الصحية المناسبة حتى تلد أخر هذا الشهر وبعدها سيكون الحديث معك ....

***

يجر أقدام الخيبة.. راجعا لوحده وإذا بزكري يناظره من بعيد ... صخر ... أين كنت في هذا الليل؟

– كنت اطفي نيران قلبي قبل نيران الجيران؟

– هل تقصد والد برنية .... فقد كنت هناك ولم انتبه .....

– لأنك شيخ طريقة؟!!

نعم ... لأنني شيخ طريقة سوف ارجع إليك زوجتك رغم انف والدها ولكن عليك الانتظار قليلا ...

سعد صخر بهذا القول الواثق.. انه زكري إذا قال شيء.. سوف ينفذه ... يردد صخر وهو نائم على فراش الأحلام؟

جاء الصباح وكل خطط زكري جاهزة .....

ولم يبقى إلا التنفيذ، دون تردد يطلب صخر الحل سريعا ..... فاذا بزكري يطلب منه عدم تسجيل الابن باسمه والتهديد بذلك؟

عليك الذهاب إلى منزل برنية والقول لهم أن ترجع إليك أو تبقى هناك دون الاعتراف بنسب المولود .....

كرر صخر ما سمعه أمام برنية بحضور والدها ..... الذي تفاجا بهذا الطلب؟ إنه الجنون.. تقولي عنه اهطل.. ولكن ليس اهطل فقط بل هو مجنون والسلطات المحلية تصر على انه إنسان طيب وسوي!!

خرت برنية وأغمي عليها، تم إسعافها بسرعة حيث قرر الأطباء سرعة أجراء عملية ولادة لها ...

أنجبت الولد وأصبح الجميع بخير ... جاءت إجراءات

المستشفى تطلب الأب واستكمال الأوراق ...

ولكن صخر مصر على أفعاله قبل أقواله حتى جاء الشيخ زكري مهنئا بالمولود .... نظر ونطق أمام والد برنية ... سوف أخلص لك هذا الأمر ولكن عليك أن ترجع الأم وابنها إلى حضن الزوج؟

– وافق والد برنية.. بسرعة..

تم تسجيل الابن على دفتر العائلة ... صخر أصبح والدا الآن

يبحر في أعمق نقطة من بحر الظلمات.. هل هذا الابن لي .... انه لا يشبهني.. انه بعيد عني ...سكن الكلام في خاطره ولكن لا يستطيع البوح به..

كما اسر بقتل النفس دون ترديد الآهات ... هذا السم الذي جلبته إلى منزلي ... سوف يعيش معي وبقربي ولكن دون مهرب منه ... كيف لي أن أتخلص من هذا القلق المزمن.. سوف يرافقني إلى الموت ذا لم أتعالج منه بسرعه؟!!

***

يشاهد السيد زكري من بعيد .... أنها برنية تسعى في الأرض مرحا وفرحا برجوعها إلى منزلها الكبير وكيف لا ... إذا عرفنا أن الأهطل يملك الكثير من الأموال وأصبح من الباشوات؟

يصرخ في نفسه ... أه يا قلبي أنها الساحرة ... لا يمكن أن ينجح سحري أمامها ... الأكيد انه سوف يخضع لها، قد سيطرت على قلبي من قبل، عقلي لأيمكن له أن يفكر عندما تخرج أمامي ...

لا يمكن لهذا السحر أن يقف إلا برده بسحر اقوى منه ... يجب أن تكون لي وان تخضع مع أملاكها .....

في غمرة الاجتياح والزهو المسكون بالحب ... تصفع برنية زكري على وجه ..... لماذا تحدق بي هكذا؟ وتسمح لنفسك بهذه الابتسامة الغريبة..

– هل الحلم عيب ... لقد كنت احلم بك وأنتِ ترتدي رؤوب احمر شفاف تلك الليلة؟؟

أي ليلة؟ وكيف عرفت أنني املك رؤوب احمر وارتديه!!

– إنه حلم ... حلم؟

نظرت إليه بغضب ... وانتهى بها الأمر وهي في منزلها غاضبة .... هل صخر أخبر واطلع زكري على حاجيات المنزل وانا غير موجودة؟

أم انه يختلس النظر إلي في كل ليلة ...

الشكوك أصبحت كبيرة واختلطت مع شكوك صخر أيضا ... تنظر إلى صخر وصخر ينظر إليها وكلا لا يملك إجابة للأخر ...

– هذا الرجل امتلك الأرض وقريبا سوف يمتلك العرض ... إذا لم تتحرك يا فالح !!....

– ينفجر صخر غاضبا .... ولكن هل ينفجر في وجه المعالج ... الطبيب والصديق والمخلص؟؟ أم من الابن الذي أصبح مثل المخرز.. يتراجع صخر..

عندما تسيطر الأوهام على قلب المحب، يكون مثل الورم الذي ينتشر بسرعة فلا يقوى الحب على علاجه أمام هذا الظلام الدامس الذي يحيط بالقلب من كل جانب.

كل المحيطين بك يسعون إلى هدف واحد لا ثبات انهم على حق وأنك دائما على خطا ...

نتيجة طبيعة لأي رفيق سيئ..

***

لا تأتي الأوجاع إلا دفعة واحدة، ولكنها آتت في دفعات متراصة تبحث عن ثنايا صخر ... وتعلن الصلابة أمام قوة الصخور..

لا تعرف المصائب بين الأسماء لأنها جماد ... تبقى الأسماء عند فعلها وتبقى الأفعال عند غيها..

حتى نزلت الأسماء الثلاثة على ابن العم، تسال عن الحال وعن الحق الذي لا مفر منه ...

يأتي الخبر من العزيزة ..... برنية لا مكان له في المنزل الآن؟

يتركون له الخبر والإعلان ... فمجيء أبناء العم تترك الوضوح إلى ما هو جلي .....

في هذه الأثناء كان صخر في كوخ زكري يتباحث معه عدة مواضيع .... أهمها حالة العلاج وماذا سيحدث؟

– الموضوع لديك يا صخر .... أن تكتب نصف المنزل والمزرعة لها ولابنك أو ينتهي الأمر عند أبناء العمومة .... وقد رأيت من بعيد انهم كانوا في عجل إليك قادمين!!

هل تقصد أنني الآن بين برنية والطفل وبين أبناء العمومة؟؟؟

أنت الذي تخسر في النهاية إذا لم تتنازل ....

يقفز خارج الكوخ باحثا على نخلة طويلة يستند عليها بعيد ... ينظر إلى ثمارها البعيدة ... بعد الثمار يجعلها أكثر جمالا ... لا أستطيع أن اترك

برنية مهما طال بها الزمن عني، لا أستطيع التصرف والمرض يحيط بي ... وأبناء العم يبحثون عن الأرض..

برنية لن تقبل بكل هذا؟

يطرق الباب حتى تفتح له .... أبناء عمك كانوا هنا ويبحثون عن الحجج؟؟

أه ..... لا يوجد علاج لهذا الورم الذي ابتدعه لنا الشيخ! هذا الذكري يريد اخذ مرتب شهري لقاء نصف المنزل ... وأبناء العمومة يريدون النصف الأخر وانا انظر لهذا الطفل الذي اشك به ... فقد كلفني مبالغ طائلة ولا اعرف مدى العرفان الذي سوف يكلني به.

– أنت اشد الناس بخلاً على بيتك ... تشك في طفلك حتى لا تصرف عليه ... انه طفلك وأياك أن تشك بي والا تركت المنزل مرة أخرى؟!

– يتمتم صخر في نفسه ... صدق زكري؟!! أنها تسعى لترك المنزل وبسرعة.. عليا فعل شيء قبل أن اخسر الكل؟

***

يأتي الليل.....

حتى يحلم كالعادة بانه يصنع المشاعر المختلطة مع برنية التي تبتعد عنه في الفراش وقبلها يركن إلى الجدران ...

الجفاء أكبر من أن تحتمله غرفة أو منزل به سقف ... انه الابتعاد بمسافات زمنية كبرى..

يأتي الصباح ويحل الضوء التي ينهي الفرح إلى كابوس ... تسعد فرحا أنها بعيدة عنه ... ويخرج هو سعيدةً مزهوا بقضاء ليلة حالمة إلى دار القضاء لأجل كتابة نصيبه في الأرض والمنزل لبرنية وطفلها شعبان ...

***

رجع صخر إلى منزله وفي جعبته الخبر الذي لا يمكن أن يبقى إلى أخر النهار، فقد خرج في شكل ريح عفنه تعبر عن حالة سرور لبرنية التي سئمت هذه الأفعال الكريهة..

يضحك صخر معتقداً في نفسه انه سوف يمن عليها ببعض الأموال؛ نعم ... شراء برنية ليس بالصعب ... يردد في نفسه .....

لقد كتبت لك كل ما املك يا برنية ... أنت الآن تملكين كل شيء!!

لم ترد ببثه شفا.. ...

تودد إليها واقترب ... هذه هي الحجج الجديدة ... تقبض عليها برنية وتنظر إليها ... فقد سئمت أحلام الليل وإرهاصات النهار...

ولكن صخر يبحث عن أحلامه الليلة في وضح النهار .... تصده برنية عن نفسها ... وهي تردد أنها كم من زمن طويل وأنت لا تريد الاقتراب مني.. فقدت كل شيء بداخلي وأصبحت انظر إلى نفسي إنني غير موجودة، لست تلك المرأة التي يسعى كل الرجال في طلبها .... أنت قتلت صورة المرأة في ...يا صخر الصخور؟!!

يغضب صخر؟ كيف تقولين هذا وأنت كنت معي البارحة!! وأيضا قبلها الليالي وليالي!! ...

كل ليلة تفرحين بي على فراش الزوجية... لماذا الآن لا؟ مع وضوح النهار... هل كتب علينا الليل فقط؟!

لماذا الحب لا يكون في كل الأوقات؟ من حدد أن الزوج والزوجة ليس لديهم وقت إلا من خلال دقائق معدودة في جنح الظلام؟

****

ينفجر غضبا وهو خارج من المنزل مسرعا باتجاه سيده زكري ... يا زكري.. كل لحظة يزداد الأمر تعقيدا .... كيف تقول إن برنية تريد المال فقط ... وتنكر عليا كل ما قلته من مال وحب وعشق... كل شيء.. كل شيء غير موجود... أنني أعيش العدم ...

أنام معها في كل ليلة على الفراش .... واليوم تقول لا يوجد مثل هذا الكلام ... هل العلاج اخذ مفعوله العكسي؟؟ يا شيخنا ...

أنت تعيش أحلامك الخاصة ... تريد حب من نوع خاصة تقتله في جسم برنية ليلاً وتحيه في قلوب الأخرين صباحا ...

من تقصد بالأخرين؟

خذ هذا الحجاب الآن وسوف ترى ماذا سيحدث خلال الليل!!

– أنت قلتها ... حب من نوع خاص .... وعلى برنية البلاغ!!

في هذه اللحظات كانت برنية مشغولة البال في كلام صخر إليها؟ هل هناك نوم أخر بين الزوجين لم تتكلم عنه الغرف المغلقة..... أين الإجابة من سؤال لا يعلمه إلا الزوجان؟

من يعطي الدرس الأول في كيفية الحب؟ كل شيء يحدث تحت الغطاء ويبقى أسيرا لقلب الزوجين مسجوناً بين الجدران ...

أخذت المصحف وقرات آيات من الكتاب الحكيم ونامت في الغرفة الأخرى ...

***

أتى الصباح ....

وجد صخر نفسه متجردا بدون ملابس والعرق يتصبب منه!!
نظر إلى أسفله حتى وجد أثار غريبة على فراش النوم ...

تغمره السعادة .... ذهب مسرعا إلى برنية التي تعد الطعام بالمطبخ ...

دون تردد ... ما رأيك بليلة البارحة؟ هل أنت راضية عني الآن ..

تنظر إليه بغضب ... عن ماذا تتكلم؟ كل الليل وانا نائمة بالغرفة الأخرى ومعي المصحف واسمع لصراخك المعتاد كما هي العادة..

– أفرغ صخر جام غضبه في الإطاحة بالفطار من على الطاولة وذهب مسرعا إلى زكري، أعطي لي تفسيرا لما حدث وسيحدث؟!
أنك العشيق!!!

..... أنت العشيق ..... والمعشوق للعفاريت..... أو بالأخص هي عفريته ...

– ماذا؟؟

– برنية دائما تعيرك بالرجال وأيضا بابن عمها .... برنية لا تريدك يا صخر .... عليك أن تنظر إلى حياتك بطريقة أخرى .... يجب عليك أن تتمسك بالذي يحبك؟

– لماذا تلف وتدور ... وعفاريت .... أنت الشيخ زكري الذي اعرفه؟!

– أنت متزوج من عفريته ولك منها ابنه وهي تحبك؟!!!!

– من أين خرجت لي عفريته وابنه أيضا؟!!

– نعم .... أنت لك نظرية خاصة في الحب؟؟؟؟ وحب العفاريت له طقوسه الخاصة ... وهي نظرية واحدة، تنقن في تطبيقها يا صخر!! ...

لم أرى في حياتي حب قوي مثل حبك أنت وشمتير العفريتة؟!! فقد كانت صراخكما كل ليلة ... هي قطعة غنائية اسمعها قبل المنام؟!!!

– خر من هول الصدمة .... لم يستطيع حتى الرد على زكري .... لقد نسى انه إنسان مخلوق لأجل الطاعة ... سلبت منه الإرادة والصحة والمال والجاه وحتى حق الزواج ....

لم يبقى شيء .... كل المحيطين به خونة ... يصرخ صخر!!

لا املك في نفسي شئيا الآن ... إلا الانتقام ... السلاح الوحيد الباقي هو الانتقام!!

ينظر في وجه برنية ... بعد أن كانت تخاطبه دون أن يرد عليها .... لما أنت على هذه الحالة منذ أن دخلت المنزل .....

يذهب باتجاه غرفة النوم ... هل تعلمي يا برنية ماذا يحصل في كل ليلة على هذا السرير؟!!

أنتِ الشاهدة الوحيدة .... لا... لا.... حتى زكري هو شاهد أيضا....

ولكن أنتِ شاهدة من نوع خاص ... على حب خاص ... وسوف يكون خالص ل شمتير؟!!!

من .... هل أنت مريض؟

لقد تزوجت من عفريته ... هي الأجمل والأفضل منك ... وعندي منها ابنة هي جميلة أيضا؟!!

دائما تعايرني بابن عمك الوسيم وانا الرجل الشرير الحقير .... ولكن لم تنظري إلى القناع ... خلف وجهك الجميل ... انظري إلى نفسك ... كما أنت شريرة وساحرة ...

جلبت لك ذرة من نوع خاص... وهي الأفضل في كل شيء.. ولا يمكنك الفوز عليها ..... هذا هو النصر الذي ابحث عنه؟!!

– تعترف بابنة في وسط الليل ... ولا تعلم أنك متزوج إلا من خلال ابنة ... وتنكر حق ابنك الحقيقي في وسط النهار وحق الحضن له ... نعم أنت صخر الذي يقذف الأخرين بالشر والسحر ..... أنت زكري ... الحقيقي.. أنت زكري..

يتحرك المارد الخفي .... شيء مخفي يلوج في صدر برنية ... انجذاب قوي تشعر به برنية ... اتجاه زكري الشيخ ... فقد حرك الطلاسم من بعيد.. معلنا انه لا يطيق الفارق عنها .....

***

الباب الثاني

أتى أبناء العمومة بالمعاول والفؤوس إلى بيت صخر... طالبين الحقوق بالميراث ولا سبيل أمام صخر ...

يصرخ صخر قائلاً من خلف الباب.....

زكري ..... زكري ... حصتكم في الأرض أخذها الساحر زكري، أصبحت من ممتلكاته.. هو يملك كل شيء؟

يذهب الجمع إلى زكري في نهاية المزرعة، خرج لهم بالأرواق التي تثبت انه اشترى نصف الأرض ونصف المنزل بيعا وشراءً..

لن تنتظر برنية ... تجمع حاجياتها وتذهب بسرعة إلى منزل ذويها ....

وأيضا هرب صخر بعيداً.... وأصبحت الأرض والمنزل بدون أحد ... يدخل ويخرج زكري دون أن يوقفه أحد ...

قرر أبناء العمومة قفل البيت ... وملاحقة صخر ...

***

بعد أسبوع ...

رجع صخر في متنصف الليل إلى المنزل ... وجد الطعام اللذيذ معد من قبل شطير.. فهي تنتظره وتعلم انه قادم إليها ...!!

رفض الأكل وأيضا التودد الصادر عنها ... استمر الغضب مع كل كلمة جميلة عن برنية .....

حتى انتهى امر صخر ... بالموت

رأى في نفسه الملاحق وقد خسر الابن والزوجة والأقارب.. يشك في الجميع ....

الشيخ زكري ما هو إلا شيطان .... أعطى احدى جاريته لي من اجل اخذ زوجتي!!

بدأ في ثوب الناسك ... والنهاية كانت مع عفريتة قاتلة...

- أمسكت صخر عن التقدم فسقط على وجه .... انقشع الليل وجاء الصباح حتى يعلن عن وفاة صخر من خلال نافذة مفتوحة على كوخ زكري ... رأى زكري موت صخر قبل أن يرى حياته وسعادته .... رسم له طريق الذل والآنكسار والنار ليدخلها بعد أن اشترى مفاتيحها .....

يأتي بالأبخرة والطلاسم ... يطلب من أولياءه المساعدة في إرجاع الروح ... يفرح قليلا ويبكي قليلا ... ويصرخ حتى يأتي الجيران مع البوليس ... انه المكتوب.. انه المكتوب يا أسياد!!

تم ضبط الأقوال والتحري عن المكان.. الكل يدلي بشهادته ... ولكن الم برنية يصرخ نزيفا في قلبها، دون أن تتحرك المشاعر على وجها ... فقد انتهى كل شيء.

من قتل صخر؟

الإجابة في عيون العشاق الجدد .... زكري وبرنية فقط ...

ولكن أنظار الناس والبوليس ذهبت إلى أصحاب الحقوق الضائعة ... أبناء العم هم المجرمين ... القتلة.. نعم انهم القتلة يصرخ زكري...

عندما تتوسع العائلة ... يصبح الأخوة من نفس العائلة هم الأعمام وأبناء العم ... يغيب الحب مع كثرة العدد وتضيق القلوب قبل أن تضيق المساكن.. يخرج الخلاف عند أول اصطدام ...

هي حب الدنيا مغلف بحب النساء، يكون أكثر شراسة من الصدق المخفي في الصدور..

***

كل الأنظار تتجه إلى أقرب الناس إليه من بقي من نسل صخر الذي يتفخر باسمه وأهله انهم أبناء العم القتلة.. أرادوا المال والأرض فقاموا بالجريمة البشعة لأجل الاغتناء السريع ...

انهم وحوش لم يرحموا ابن عمهم الوحيد.. يردد زكري وسط اندهاش الحاضرين من أهل القرية ...

يصبح عند أهل البلدة والبوليس قناعة كافية بان أبناء العم هم المجرمين ... فقد قال كبيرهم .... انه الشيخ زكري ... قفلت المحاضر دون تمحيص على إصدار مذكرة اعتقال من قبل الأهالي والعسس على المجرمين والقصاص لابد منه ...

قبض على أبناء عم صخر في لحظات، لا يعلمون بشيء إلا انهم أقارب صخر الذي اخذ منهم الميراث والآن بعد موته ... جاء ليأخذ أرواحهم ...

تهتف الناس بحياة صخر .... الأهطل له محبيه فقد كان معروف في البلدة بحسه الفكاهي ... وكم من عالم ومعلم فقد على قارعة الطريق ولم ينتبه إلى حياته أو مماته أحد ... ولكن دائما فاقدي العقل لهم ميزة الانتشار بين الناس!!

لم تكن هذه اللحظة إلا انتصار كبير لزكري حتى يعلن انقضاء صخر وزمرته ... فقد أعلن الفتوى على المجرمين وجاء دور الدين في حرمانهم من الميراث .... القاتل لا يؤرث بشيء ... القاتل لا يؤرث يصرخ زكري وتهتف معه الناس ...

لا يستطيع أحد الاعتراض على زكري أو الوقوف أمام الجماهير الغاضبة، التي انجذبت إلى أقوال وأسحار زكري أو تماهيا لاكتساب

ود برنية بعد أن أصبحت بلا رجل الآن!!!

همس الشيخ بها قبل أن يتحرك العسس.. عليكم بتركهم للناس حتى تتطبق الشرع فيهم الآن!!

في غمرة الصخب ... يقترب زكري من برنية ..... الأفضل قربا ونسبا وحفظا لابنا صخر ... لا يوجد أفضل مني ... فكري يا برنية..

***

رجعت إلى البيت تتخبط في حيرة من أمرها. ...

من فاجعة موت زوجها إلى غضب الجماهير واتهام الناس للأبرياء ... إلى عرض زكري المقيت!!

نعم انهم الرجال لا يفكرون إلا في مال الحسناء قبل أن تقع، تم في حسنها بعد أن تنكسر، انهم مجرد ذئاب في أجساد بشر ...

لم يضبطهم الدين حتى في القصاص..... من قاتل أو حق الجار أو حرمة الميت وانتظار انقضاء العدة .... يبحثون عن المتعة في وقتها أن كانت انتقام أو حرمان، لمجرد الحصول على جسد إنسان اهطل كان ميت قبل أن يموت بإعلان زكري عن وفاته ودفنه مع أسراره ....

لا تشعر بنفسها فقد فقدت كل مشاعرها ... لم تجد الراحة إلا على السرير تصرخ الكبث والظلم ... إلى أين كانت تذهب بعد أن فقدت ابن عمها الجميل الفقير وصخر الأهطل الغني ... الآن...الآن زكري الساحر يريد الفوز بها ... ما هذا الظلم؟

يتحرك السرير من تحتها ... كلما اقتربت منه اكثر شعرت بان زكري هو الرجل المناسب لها ، يختفي الكره ويأتي الحب بدلا منه ... هل من الطبيعي أن يتبدل الغضب الشديد إلى حب بهذه السرعة ...

***

انبهرت في كونها تتزوج من زكري ذو البشرة الزرقاء ... ولكن ماله ومكانته أصبحت كبيرة في القرية الآن ...

انتقاء الفرص هو السبيل الوحيد للنجاح فقد كانت تبحث عن المال والسلطة بعد أن فقدت ابن عمها من قبل، لا تنظر لجمال الآن أو المجانين والسحرة!! ...

انه المعالج الوحيد في القرية وكاتم أسرارها وأسرار نسائها ...

من يملك زكري يملك مفاتيح القرية ... يجب أن املكه .... تصرخ برنية .... اختلفت قلوب الأدعياء في صنع المؤامرات ولكن في المقابل اتفق كلا منهما في امتلاك الأخر؟!!

كان الأمر في عجل قبل أن يختطف القدر شئيا من الواقع، تبقى موافقة والد برنية هي العقبة والمشكلة أمام زكري العاشق ....

علم من الأدعياء أن برنية تغلي شوقا وحبا في الزواج منه، فتح الموضوع أمام والد برنية وأعلن عن نفسه وعما تشعر به ابنته، فجع الوالد ... وكيف تتزوج ابنتي من ساحر وهي مازالت في أشهر العدة؟!!

يمسكه من عنقه ويخرج مسدسه من تحت الخب وكما هي العادة تهديد ووعيد ولكن هذه المرة يقبض زكري على المسدس قائلا.. أنا البي زكري اليوم ... صاحب الأملاك والمعالج الوحيد وعليك أن تحترمني وتقف بعيدا عني والا أصبحت في بدنك بدعاء واحد من أدعيتي ... إلا تذكر اشتعال النيران؟!!!

تردد دائما أنني ساحر ... ومن يأخذ الحق من ابنتك الساحرة؟؟

أنا لم اسحر ابنتك بشيء ... بل هي من أخذت عقلي وقلبي

وسحرت كياني ...سكنت فؤادي .... أيها المخادع...

ليست أنا فقط ... أهل القرية مسحورين بها منذ القدم ولكن أنا الوحيد الذي استحق أن أنال هذا السحر واحتوائه قبل أن ينقلب إلى نار... ويشعل أهل البلدة بكاملها ...

***

في السنة السادسة من عمره كان شعبان يلعب مع جده، جاء العريس وخطف أم شعبان (برنية) في مشهد قاله عنه انه زواج ...

ليس هناك من يعترض أو يعلن الحداد إلا شعبان فالكل كان في حالة فرح ولكن ليست هناك سعادة .... إلا للزوجين ... وهل تهم سعادة الأخرين في الأفراح أكثر من سعادة الزوجين ... نعم قمة السعادة عند الزوجين فقط .... أه انهما الساحران ... تتمتم كآهلة من هناك!...

يرجع البي زكري بزوجته إلى مخدعها، بعد أن أكملت الطقوس التي امتدت إلى أكثر من سبعة أيام تتخللها الكثير من الحفلات والليالي الصاخبة والغناء والرقص ...

حتى يأتي يوم الدخلة وهو يصادف في العادة يوم الخميس من كل أسبوع ...

لم تدخل برنية إلى مخدعها إلا على صوت الحضرة القوية، هكذا كان شرط زكري.. فقد كان يوم أن رآها في الرؤوب الأحمر من أعلى النخلة وذاك اليوم حاضرا أمامه دائما ... ولكن الشيخ هذه المرة أكمل الحضرة مع كؤوس من الخمر الأحمر حتى يرى الألوان على طبيعتها؟!!

***

يبصر به العارفون.. انه فاجر يسرف في شرب الخمر وليس بشيخ ... نعم انه الكذاب المنافق، يبرر للأخرين انه يسعى في روحانيات الله ومرضاته وقد هام في التسبيح والعزوف حتى أصبح من أولياء الله الصالحين المرضي عنهم ... يطوف بنا وهو مخمور على انه وصل إلى الروح والخلاص؟!!

جاء الصباح معلن عن استلاء زكري على كل شيء بعد أن انفض الجمع وأصبحت برنية تطوف البيت كالفراشة أمام زكري ...

ينظر إليها وقلبه ممتلئ بالشكوك ... عليك إلا تخرجي من البيت أبدا.. أبدا يا برنية؟

لم يكمل كلامه حتى جاءه ما في السر ... أنها تفعل المفاعيل وتصبح يا شيخ مصيرك مثل مصير الذين قبلك ...الأهطل ... وهم كثر أمام برنية اليوم؟!!!

تقاطعه برنية ... لماذا وجهك شاحب هكذا في الصباحية يا بي!... هل تخاف من الجنية؟؟

-من الجنية؟!! ...أردف في نفسه ...إلا لم تكن أنت الجنية؟

- اقصد التي كسرت رقبة صخر..

يرد متجاهلا كلامها ... كل فعل يكسر رقبة صاحبه والأفعال هي نتيجة حتمية لفعل الخطايا..

أنا احرص عليك يا شيخ أن تعلم وتتعلم فانت الآن أصبحت بي وشيخ وعالم وكل شيء في هذه القرية صغير!!

***

يخرج زكري لصلاة العصر بالمسجد القديم بعد أن تناسى الصلوات التي تسبقها ... فصلاة العصر لها الجمع المناسب الذي ينتظره زكري لأجل إعلان نفسه البي القادر...

ينظر إليه الجمع باستغراب ولكن المغفرة تأتي لمن أراد التوبة، انفض الجمع من الصلاة حتى أدني أمام المسجد ((علي)) من زكري طالبا منه تدريس شعبان بكتاب مع الأطفال عند كل صباح بالمسجد ...

تردد زكري في الموافقة في بداية الأمر ولكن خوفه من الشيخ ونظرة الأهالي جعلت منه يوافق ...

ولكن بشرط أن تكون المدرسة أولا، ينتهي من المدرسة تم يأتي إلى المسجد ... حتى يتخلص من شعبان في اغلب الأوقات فقد أصبح يتعلم في المخفي عن زكري وهو ما لا يريده البي .....

***

كانت هذه أولى مراحل خروج شعبان من تحت عباءة برنية وجلباب زكري.. أصبح شعبان يدرس بالمدرسة ولكن بسبب ضعف المال والفقر والمرض أصبح عدد الأطفال الدارسين قليل جدا..

مع هذا القليل ... كانوا لا يحبون شعبان ويرون فيه الإنسان المتجدد من أبيه ... انه الأهطل الذي فقد كل شيء..

فهو قليل الكلام انطوائي .... يهتف الأطفال باسمه في كل وقت من أوقات المدرسة حتى كره الذهاب إليها واكتفى بالذهاب إلى المسجد، أصبح يرى فيه كل خلاصه من الدنيا ووجد فيه دفء المشاعر ونظرة الشيخ علي إليه وتعليمه باهتمام البالغ ....

***

الباب الثالث

كان الشيخ علي يرى في شعبان مشروعه في نيل رضى الله ... الكفيل ومن يكفل يتيما فله الأجر العظيم ...

يسعى جاهدا للذهاب إلى منزل شعبان والسؤال عنه وطلب الدعم من والدته (برنية) بعدم إيقاف شعبان عن الدراسة وتلقي العلوم الصحيحة والأخذ بها ... يكرر دائما النصائح حتى أصبح عمر شعبان الثانية عشر عندما طرده البي من منزله بحجة السرقة؟

الكل يعلم أن شعبان لا يسرق ... ولكن البي لا ترد عنه الشهادة أمام اهطل صغير ضعيف؟؟

طردت أيضا والدته بعد أيام قليلة، حتى يتزوج البي زكري امرأة أخرى تجلب له سعادة وحياة جديدة..

قرر التخلص من برنية التي لا تريد أن تنجب له ولدا حسب اعتقاده، حقيقة الأمر انه بعد أن استولى على كامل المزرعة والمنزل ... أصبحت الطريق ممهدة للزواج من أي فتاة صغيرة.. تعشق التردد عليه بحجة العلاج!!

فعدد الفتيات الرغبات في الزواج من البي أو الشيخ أو أي شخص غني ينتشلهم من حالة الفقر يتزايد يوما عن يوم .....

عاش شعبان مع والدته عند بيت جده متعكر المزاج سريع الغضب، ينظر إلى شعبان بعين الغريب عنه.

كانت المعاملة للشيخ الصغير تبلج عما في صدره الكثير، فلم يشعر يوما انه ابن العز والكرم، الإهانة تأتي إليه من القريب قبل البعيد.

أخذ حقه في الحياة، تقاسم الكل تركات والده والآن جاء الوقت الذي يرى فيه الأقارب انه بطيء جدا في اخذ القصاص من شعبان الصغير..

لم يتمالك في نفسه حتى أخبر معلمه بما يشعر به، كان مكسور الجناح لا يجد من يأخذ بيده أو يشير عليه إلا الشيخ علي في بعض الأوقات..

طلب منه الشيخ الصبر والانتظار حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا .... استمرت حال البؤس، شعبان يوما عن يوم يذبل في إناء الأقارب ...

الجد لا يريد من ابن ابنته (برنيه) البقاء طمعا فيما بعد ...في قسمة الميراث وأخذ الأشجار المثمرة، التي هي أفضل من الأرض البور الشاسعة وأكثرها خيرا ...

يقاس رزق الناس بالأشجار المثمرة.. لا الأراضي الكثيرة الخالية..

ينظر الأبناء والأخوال إلى لقب شعبان الغريب عنهم، الابن الذي جاء من بعيد لأجل الميراث بعد أن ضيع والده ميراث أبياه كله.

يسمع شعبان ويعي كل ذلك من عيونهم الشاخصة عليه، همساتهم لا تقف وليس لها حدود، يعتقدون في أنفسهم انه المتخلف الذي لا يعرف شيئا مما يقولون.

صمت شعبان قيمة كبيرة في المعاني والألم والتضحية من اجل امه .... منذ متى يدفع الأبناء خطايا الإباء .... من الذي يحاسب بلغة العدد .... انهم الأقارب شديدي الحساب والعذاب؟!!

***

الأقارب الذين يجب عليهم أن يكونوا السند والرحمة لشعبان، تغير حالهم إلى القسوة والقطيعة بسبب حب الدنيا التي جعلتهم يعدون الخطأ ويحسبون الخطايا، يقاسي القلب أحيانا حتى يهرب من الم إلى الم أخر..

الغربة .... نعم فقد أيسا شعبان من كل هذا وبدا يبحث في داخله عن مكان بعيد يمضي إليه... يبحث عن شيء دافئ يخرجه مما فيه.

يبحث عن غربة تكون هي المنال في تحقيقه ما يصبوا إليه ...

لا غربة أكبر من الغربة التي فيها الآن .... عندما تكون الغربة قاسية وأنت مقيم بين أقاربك واهلك ...فان المنايا تطلب باقتدار...

***

قرر شعبان سماع صوت قلبه المنادي لصوت الحق وتتبع طريق الرشاد وسلك مسالك المعلمين والأجداد.

على خطى معلمه ذهب إلى مدينة المعرفة وعلوم القرآن (ظل التين) ...

تعرف بحسها الروحاني وعبق التاريخ الإيمان المتجدد عبر جدرانها، تبحث عن التجديد دائما ولا تبخل عن قاصديها، تجود بالكثير لمن أراد الاكتناز من معالمها وترد الضيم عن المظلوم وتبعث بالراحة لساكنيها ...

أشياء كثيرة يبحث عنها شعبان ... وجدها في ظل التين البعيدة جداً عن بلدته ...

لم يكن شعبان أن يذهب لمدينة ((ظل التين)) لأجل شهرتها بالفواكه وحسن الجوار والضلال المرتفعة عبر كثبانها الرملية الشامخة، بل كانت هناك غاية واحدة تجدبه إلى هذه المدينة وهو إحساسه القدسي بأهمية المكان وكأنه مجبور أن يذهب ويقاسي تعب الطريق ومشقة السفر.

نعم لم يرى أهل المدينة ولم يتعرف عليهم إلا عن طريق الأخبار المرسلة من بعيد .... يتمنى أن كل ما سمعه عن أهل المدينة هو صحيح ....

مدينة تعلم القران بعدة روايات مختلفة ... هي جديرة بان يسافر إليها شعبان مسرعا ...

***

دون اخذ الموافقة من أحد إلا من امه ... قطع شعبان مئات الأميال في صمت رهيب يبحث عن متعة اللقاء داخل لوح الطين، حزين عن فرقان امه ... أنها الحياة تبحث عن مجدها وتبحث عن ذاتها عند المستقر.

يمشي على الأقدام تارة ويركب البعير تارة أخرى، فقد أهداه إياه الشيخ علي حتى تكون وصلة خير ومساعدة..

وصل إلى معالم ظل التين الخارجية ((المبرور)) والتقى باهلها البوادي الطيبين الكرام، سمع المديح والثناء على مكارم الشيخ الولي أحد معالم وأعلام المدينة..

شعر شعبان بالخوف لكثرة الأحاديث الغريبة حول خرافات بعد موت شيخ المدينة، هناك من ينقل عنه أشياء حصلت وأشياء لم تحصل.. وأصبح يقدس بعد موته عند البعض ويحلف ويذكر قبل الله.. وتطور الأمر إلى تقديس سره..

يعلى شانه باختراع الأكاذيب والقصاصات السيئة عنه ....

تذكر شعبان قصص زكري وخزعبلاته وعلومه .... أنها نفس المدرسة؟!!

هل يغيب اتباع الطريقة في اختراع الأكاذيب لأجل نجاح طريقتهم ... الشيخ زكري يفتي بالجواز فيما سبق..

الوضوح وسلك الطرق السليمة هي الحق البين الذي لا حياد فيه في الدين الإسلامي.. يتردد شعبان كثيرا وأصبح يخاف أن يكمل طريقه إلى المسجد الكبير ولكن حبه للقران وتعليمه اجبره أن يأخذ القرار بالدخول إلى طرق وأحزاب غير تحفيظ القران فقط..

***

أصبح من ضمن النزلاء بالسكن الداخلي كلا في تنادي كل يوم خميس لأجل الغناء بالحضرة ... ولكن شعبان ينصرف إلى الخلوة عازلا نفسه عن الأخرين يفسر الآيات ويبحث في الكتاب الحكيم..

لم تجدبه الكلمات التي تخرج من بعض المشايخ الغريبين عن علوم القران أذانا صاغية لدى شعبان، لم ير من هؤلاء أحدا يتعلم القران أو يحفظه عن ظهر قلب..

يراهم في كل مناسبة يأكلون ويشربون ويعزفون المدائح في أحدهم مع تريد كلمات غير مفهومة....

الشيء الوحيد الذي يثلج قلبه ويجدبه نحوه هو القران، التلاوة العطرة التي تروي القلوب وتسمخ الأذان وتفتح الشرايين ...

أنها العلاج الأمثل لكل مشاكل شعبان ....

***

تطور الأمر حتى أصبح هناك حفلات تسمى ((مزارات)) لعدد من الأماكن التي يرى فيها البعض أنها مقدسة، تدفع المكارم والعطايا وينجذب إليها ضعيف الحال قليل الهمة..

تعلى الذبائح وتدفع المغانم حتى تنتج عظيم السيئات التي تحصل بهذه المقابر وبأسمائها المختلفة ... يبكي فلان ويفتح فلان ... والمناداة باسم الشيخ الفلاني القادر على كل شيء؟!!

أصبحت عادة التبرك به من الشيء المعتاد والمحبوب عند الكثيرين..

ارتفع القلق لدى شعبان وأصبح يعبر عن امتعاضه من تلك الأفعال المريضة والخالية من الإيمان وصحوة الضمير ...

بدا ينظر إليه انه هو المريض المتخلف، الغير قادر على حفظ ميراث الأجداد؟!!

ليس لأنه يعاني من أثار والده الأهطل ولكن لأنه أصبح يسلك طريق غير الطريق التي يؤمن بها الهائمون على تقديس الأرواح والدعاء بهم ولأجلهم

في ذات السياق أصبح لشعبان أصدقاء مميزون يرون فيه التواضع والصوت العذب وحب القراءة ونهم المطالعة وخاصة المتعلقة بالتجاويد، أصبح هناك من يقرا القران بعدة روايات .... انه شعبان..

***

في اقصى تراب الوطن بمناطق الجنوب رحلة اشتياق ممزوجة مع العذاب ينفصل فيها الطفل عن عشيرته باحثا عن أهله في الشمال، عن ذاته.. يقطع كل ما يربطه بذكريات قاسية وحياة تعيسة..

يمخض القلب فلا يجد إلا خيانة والدته عندما تزوجت من ساحر قتل والده وسلب كل شيء منه، خانته عندما سلمت كل ما تملك دون إعطاء فرصة لمستقبل شعبان مما سبب له المرض فوق مرضه.

ينتظر الموت دون أن يأتي، ينتظر أن يقوم أقرب الناس إليه بإطلاق رصاصة الرحمة فقد أصبح الموت المحتوم قريبا.

ولكن إرادة الحياة تأتي من بعيد ... من أناس لا تربطهم علاقة بهم ... انه فعل الخير والمحبة التي نادى بها الخيرون البسطاء.

ولهذا قرر إعطاء الخير والطيبة لكل الناس، حتى أتى ذلك اليوم وهو الراضي عن النفس، محب لكل ثانية يعيشها..

لم يعلم بان اليوم المحتوم قد أتى لزكري قبل الأخرين، انتهى علاج الأوهام ولم يمنع سحره عن علاجه من الأمراض .... خرّ ميتا ذليلا ... وحيدا..

جاء يومه وبقيت الأملاك والأرض ... دون أن تصلي أو يصلي عليه الجمع ... الدفن لم يكن إلا من متطوع وارض لن تقبله ...

***

اغلق المنزل فلم يعد هناك أحد يرضى أن يعيش في منزل مسكون بالسحر مقتول فيه الأهطل.

ردد الأهالي أن المنزل لا يستطيع أحدا الدخول إليه إلا مواليه[1]... الشيخ شعبان ...عليه أن يأتي من بعيد

هذه أملاك حق لشعبان فهو الوريث الحقيقي لها ... ومن أراد المغامرة والدخول إلى هذا المنزل المسكون ... عليه ذلك ويتحمل العواقب..

لم يمهل الخبر كثيرا حتى وصل إلى مسامع شعبان الذي أصبح يتقن مخارج الحروف والقراءات المختلفة للقران وتفاسيره..

قرر الرجوع إلى تربة قريته حتى يعلم ويجود ولا يبخل عن الذين ساعده وحتى من أداءه ...فالخير أوصى به للجميع..

انه لفضل لله والإحسان يكون وفق الطاعة التي تعلمها شعبان ... برا بوالدته وصاحبا لعشيرته ... أصبح شعبان هو الشيخ والقائد للعشيرة الحية ... بعد أن كان والده الأهطل اقل الناس منزلةً عندما أعلن الانعزال وتكبر عنهم ...

لم يكن شعبان مجنونا ... إنما أفضل حظا من والده وأوسع قلبه بالفرح والسعادة فكسب القلوب قبل العقول..

ساعد الأخرين في الحصول على أملاكهم وأعطى أبناء العم ميراثهم وأصبح الجزء الأخير له يعيش فيه مع والدته ...

قرر ترك الحياة لامه في أملاكها ... فقد أصبح المرض في

(١)أهل الدار.

أيامه المعدودة معروف الوقت ...

توفي شعبان وهو شيخ محبوب وما كان يهرب منه في حياته ... أصبح هو المكتوب في مماته فقد أصبح ما زرا للمتبركين المحبين للقليلِ العقل

(... يرون فيهم انهم أهل طيبة وأخيار ... ويجب علينا أحياء المزار لهم ... يتبركون بهم) ....

ما فشل فيه زكري وصخر .... قام به شعبان بدون قصد ... الناس تحب هذا.. ولا خيار أمام طلب الناس واعتقادهم .....

الكاتب .... محمود عطية..

فهرس الموضوعات

المقدمة ٧
الأهطل ٩
الباب الأول ١١
الباب الثاني ٨١
الباب الثالث ٩٣